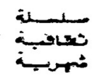
كتاب الهلال ١٠ قروش



سلسلة ثقافية شهرية

مذكرات شارلى شابلن

صلاح حافظ

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير رجاء النقاش

العدد ١٧٤ جمادى الأولى ١٣٨٥ — سبتمبر ١٩٦٥

No. 174 - Septembre 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم — فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنه . ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ن

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـلاف : بريشـة

الفنان بهجت عثمان

مذكرات شارلي شابلن

نقلها إلى العربية

صلاح حافظ

الجزء الثاني

ملخص الجزء الأول

تناول شارلى شابلن فى الجزء الاول من هــذه المذكرات رحلته الشاقة من أزقة الأحياء الشعبية فى لندن ، الى قمة المجد الفنى والثراء فى هوليوود ..

ان شارلى لم يبدأ فنانا ..

بل ولم يكن يخطر بباله الفن الا « كوسيلة للخبز » على حد تعبيره ..

وعندما ولد فى عام ١٨٨٩ ، كانت صلته الوحيدة بالفن أن والدته ممثلة متقاعدة .. اعتادت ان تروى له حكايات ممتعة عن أيام مجدها الذاهب ..

أما والده ، فكان منفصلا عن أمه .. وكان هو الآخر ممثلا ذهبت الخمر بصحته ، ومستقبله

وكان الفقر هو المدرس الاول لشارلى . وقدعاش طفولته كلها بلا متعة غير التأمل . وعانى الجوع . وكانت ثياب أخيه الاكبر سيدنى ترهن مرة كل أسبوع ، ثم تسترد فى الاسبوع التالى ..

وجاء وقت عجزت فيه الأسرة عن الحياة . فاضطر شارلى وأمه وأخوه أن يدخلوا ملجأ لامبث ..

ثم غادرت الام الملجأ الى مستشفى الامراض العقلية. وخرج هو وشقيقه الى بيت والدهما ، حيث أقاما فيه فترة

قصيرة .. كانت هي كل الفترة التى عاشها مع والده .اذ انه مات بعد ذلك بقليل ..

ولم تسترد الام عقلها أبدا بعد ذلك . صحيح انها كانت تغادر مصحة الامراض العقلية بين وقت وآخر عندما تتحسن حالتها .. ولكنها دائما كانت تعود فتنتكس ..

وهكذا .. كان على شارلى وسيدنى أن يعتمدا على نفسيهما فى سن مبكر . ولجأ سيدنى الى البحر ، يبحث فيه عن الرزق . بينما اتجه شارلى الى فرق الاطفال الهزلية ، حيث تفتحت بسرعة خارقة حاسته الفكاهية ، ولفت الانظار بقدرته المذهلة على ارتجال الضحكات على المسرح ..

ومع احدى هذه الفرق التى كان يملكها «كارفو» سافر شارلى الى أمريكا فى جولة طويلة . وكانت امريكا وقتها ماتزال مهرب كل أوربى يضيق به رزق بلاده . فأحس شارلى هناك أنه « غريب بين غرباء » . وزايله الاحساس الذى كان يخنقه فى انجلترا بأنه منبوذ بين السادة .وادرك انه هنا ـ فى هذه البلاد الجديدة ـ سيجد فرصته ..

وعندما انتهت الجولة وغادر امريكا ، كان يعلم أنه سيعود اليها .. وعاد بالفعل ، ليجعل منها وطنه الثانى ..

وبعد ان سجل لنفسه نجاحا لا بأس به على المسرح ،بدأت تراوده فكرة العمل فى الافلام . فكانت هذه الفكرة نقطة التحول فى حياته ..

كان لكل ممثل كوميدى شخصية معينة يؤديها ، ويعرفه بها جمهوره . وعندما جاء دور شارلى فى أول فيلم له ، لم تكن لديه فكرة واضحة عن الشخصية التى سيختارها . ولم تتشكل هذه الفكرة وتنضج الا فى غرفة الملابس قبل التصوير بلحظات .. استوحاها من الملابس التى

وجدها : البنطلون المنفوخ ، والقبعة العالية ، والسترة القصيرة ، والعصا ، والحذاء الضخم

وهكذا وُلدت شخصية « الصعلوك » ، التى التزمها فى كافة أفلامه الصامتة ، والتى اشتهرت فى العالم كله : وأضحكت الصغار ، وأبكت الكبار ، وحفرت نفسها فى تاريخ السينما بأضخم الحروف ..

وكان شارلى فى البداية يصور ثلاثة افلام فى الاسبوع ولم يكن يضايقه الا ضيق أفق المخرجين . فبدأ يشترط اخراج أفلامه بنفسه. فكان هو المؤلف ، والمخرج ، والممثل، وساعده نجاحه الجماهيرى الساحق على أن يخطو خطوة أخرى ، فينتج لحسابه

وبعد أن كان أصحاب الشركات يستكثرون عليه ألف دولار فى الاسبوع ، وجد نفسه يصعد بسرعة خارقة الى مستوى أصحاب الملايين . وبدات حياته تتغير . واستدعى أمه الى أمريكا ليضعها فى مصحة خاصة الى آخر ايام حياتها . كما الحق شقيقه بالعمل معه . وانتهت مشاكل أيام الفقر ، لتبدأ مشاكل أيام المجد والنجاح : تلك المشاكل التى يرويها شارلى فى هذا الجزء الثانى من المذكرات

وقد كان من رأى بعض النقاد عند ظهور هذه المذكرات أن الجزء الاول منها أبلغ تأثيرا فى النفس من الجزء الثانى

وقد يكون السبب فى وجهة نظرهم ذلك الثراء العاطفى الذى يمتاز به الجزء الاول فى تناوله لايام الطفولة ، وشخصية والدة شارلى التى أجاد تصويرها .. ولكن ذلك لا ينفى قيمة الجزء الثانى ، كتصوير بليغ لنشأة السينما ، وصراع الفن والتجارة فى صناعتها ، ثم دور الصراع السياسى واثره عليها

فهذا الجزء فى الواقع لا يتناول تاريخ شارلى بقدر ما يتناول تاريخ السينما ..

وليس في العالم من هو أقدر من شارلى على رواية هذا التاريخ • فقد عاصره منذ بدايته • وكان واحدا من أهم اقطابه . أو على حد قوله :

« لا يستطيع احد ان يتحدث مثلي عن هوليوود • فقد كنت انا هوليوود » !



جاكى كوجان فى « فيلم الطفل »

الفصل الأول

تجارة السينما

* ليلة .. مع حلمى القديم
* أردت أن ألقى بالفيلم فى صفيحة القمامة !
* استأجرنا جاسوسة حسناء ..
* أول اصطدام مع تجار السينما ..

كان الرأى العام فى بداية الحرب العالمية الثانية يؤمن بأنها لن تدوم اكثر من اربعة اشهر . ولكن هذا كان خطأ وفى عام ١٩١٨ ، كانت امريكا قد قامت بحملتين لبيع سندات الحرب ، وكان الاستعداد يجرى لبدء حملة ثالثة دعيت الى افتتاحها انا ومارى بيكفورد ، ودوجلاس فيربانكس فى واشنطون ..

وكنت قد فرغت لتوى من فيلمى الاول .. « حياة كلب » ، لحساب فرست ناشونال . وكنت مرتبطا بتقديمه للعرض فى نفس الموعد الذى ستبدأ فيه الحملة ، فلبثت ثلاثة ايام وثلاث ليال متواصلة اعمل فى تقطيعه . وعندما فرغت منه ركبت قطار الرحلة وانا فى حالة شديدة من الاعياء ونمت يومين متتاليين

وبعد أن أفقت شرعنا نحن الثلاثة نعد الخطب التى سنلقيها . ولما لم اكن فى حياتى قد ألقيت خطابا جادا ، فقد اقترح دوجلاس ان أجرب أثر خطابى اولا على جماهير الناس التى تنتظرنا فى المحطات . فلما توقفنا فى اول محطة تجمع جمهور غير قليل عند السبنسة . ومن هناك قام دوجلاس بتقديم مارى التى ألقت خطابا قصيرا . ثم قدمنى انا .. ولكننى ماكدت ابدأ حتى بدأ القطار يسير !

واذا بى أزداد طلاقة وشجاعة مع انسحاب القطار ، وتضاؤل الجمهور بعيدا عنى . أما فى واشنطون ، فما كدت أسمع اسمى على منصة الخطابة ، حتى صعدت بطريقة دوجلاس فيربانكس وانطلقت كالمدفع الرشاش دون أن امنح نفسى فرصة لالتقاط أنفاسى :

ـ ان الالمان يطرقون على بابكم ، اننا يجب أن نوقفهم وسنوقفهم اذا اشتريتم سندات الحرب ! تذكروا ان كل سند تشترونه سينقذ حياة جندى ـ حياة ابن له ام ـ ويصل بهذه الحرب الى انتصار مبكر !

وقد بلغ من سرعتى وانفعالى وانا أتكلم اننى انزلقت من على حافة المنصة وتشبثت بمارى ورسلر ، فسقطت معى فوق صديق وسيم كان بالصدفة نائب وزير البحرية فى ذلك الوقت .. فرانكلين د . روزفلت ..

وبعد انتهاء الاحتفال الرسمى ، كان برنامجنا يقضى بمقابلة الرئيس ويلسون فى البيت الابيض. وهناك أدخلونا ـ ونحن فى حالة اضطراب شديد ـ الى الحجرة الخضراء حيث فتح الباب فجأة .. ودخل سكرتير يقول بلهجة حازمة :

ـ قفوا طابورا من فضلكم ، وتقدموا الى الامام خطوة واحدة ..

ثم دخل الرئيس . فبادرته مارى بيكفورد :

ـ ان اهتمام الجمهور يدعو الى أعظم التفاؤل ياسيدى الرئيس . وانا واثقة من أن الحملة ستؤدى فوق ماهو مطلوب ..

وتدخلت أنا فى ارتباك تام :

ـ لقد كانت ناجحة بالتأكيد .. وستنجح ..

فنظر الرئيس الى بدهشة . ثم روى نكتة برلمانية عن وزير مغرم بالويسكي وضحكنا جميعا .. ثم انصرفنا !

***

قبل مغادرتي لوس انجلس من أجل حملة سنـــدات الحرب الثالثة ، حدث انني قابلت مارى دورو . وكانت قد جاءت الى هوليوود لتلعب ادوار البطولة فى أفـــلام بارامونت . وكانت عندئذ من معجبات شابلن ، حتى انها قالت لكونستانس كولير ان الشخص الوحيد الذى تريد أن تراه فى هوليوود هو شارلى شابلن .. دون أن يخطر ببالها اننى سبق ان مثلت معها فى لندن ، فى مسرح روق يورك

وهكذا التقيت مرة اخرى بمارى دورو فكان ذلك اشبه بالفصل الثانى فى مسرحية غرامية . وبعد أن قدمتنى اليها كونستانس قلت لها :

ـ ولكننا التقينا من قبل ، وحطمت قلبى .. فقد كنت عاشقا لك خفية !

فقالت مارى ، جميلة كما هى كانت دائما :

ـ انه لشىء مثير !

فأوضحت لها اننى كنت « بيللى » فى مسرحية شرلوك هولمز . وتناولنا العشاء بعد ذلك فى الحديقة .. وكانت امسية صيف دافئة . وعلى ضوء الشموع حدثتها كيف كانت آلام الشاب الذى أحبها فى صمت ، وكيف اننى فى مسرح روق يورك كنت أدبر امرى بحيث التقى بهـا على السلم بعد خروجها من حجرة الملابس ، لمجرد أن أقـــول لها : مساء الخير . وتحدثنا بعد ذلك عن لندن وباريس . وكانت مارى مولعة بباريس ، فتكلمنا عن ملاهيها ومقاهيها ومطعم ماكسيم فى الشانزلزيه .. الخ

والآن هاهى مارى فى نيويورك ! ولما عرفت اننى أقيم فى ريتز ، ارسلت الى خطابا تدعونى لتناول العشاء فى شقتها .
وكان الخطاب يقول :
« عزيزى شارلى ..
« ان لى شقة فى الشانزلزيه (أعنى شارع ماريسون) نستطيع ان نتناول فيها العشاء ، او ان نخرج لنتناوله فى مطعم ماكسيم (اعنى مطعم كولونى) .. وبعد ذلك نستطيع اذا رغبت أن نتنزه فى غابة بولونيا (أى سنترال بارك) .. »
ولكننا لم نفعل أى شىء من ذلك كله وانما ظللنا فى شقتها فى هدوء .. ووحدنا ..

***

عندما عدت الى لوس انجلس . اقمت مرة أخرى فى جناحى بالنادى الرياضى وشرعت أفكر فى العمل

كان فيلم (حياة كلب) قد استغرق وقتا أطول ونفقات اكبر ، مما قدرت . ولكن هذا لم يقلقنى ، ففى نهاية العقد سيتساوى مع متوسط نفقات الافلام جميعا . انما كان الذى يقلقنى هو الحصول على فكرة للفيلم التالى . ثم جاءتنى الفكرة : لماذا لا أجعله كوميديا عن الحرب ؟
واخبرت عددا من الاصدقاء بنيتى ولكنهم هزوا رؤوسهم . وقال دى ميل :
ــ من الخطر فى مثل هذا الوقت ان تجعل من الحرب أضحوكة ..
ولكن الفكرة كانت قد ألهبتنى : خطر او لا خطر ..
ووضعت خطة (كتفا سلاح) فى البداية على اساس ان يكون فيلما من خمس لفات : بدايته (الحياة فى الوطن)

ووسطه (الحرب) ونهايته (احتفالات النصر) .. حيث يظهر جميع أصحاب التيجان الاوربية يحتفلون ببطولتى بعد أن صرت القيصر وبعد ذلك طبعا استيقظ من النوم !

اما المناظر التى تسبق الحرب والتى تتلوها فقد ألغيت. وأما احتفالات النصر فلم نصورها أصلا . وكانت مشاهد الفيلم الاولى من طراز الكوميديا الايحائية .. اذ يظهر شارلى عائدا الى البيت بصحبة اولاده الاربعة ، ويتركهم في الطريق لحظة ثم يعود اليهم وهو يمسح فمه وقد اصابته الزغطة ، وما يكاد يدخل البيت حتى تظهر طاسة ضخمة في الصورة وتضربه على أم رأسه . ولا تظهر لنا زوجته ، ولكن قميص نوم هائل المقاييس معلقا على حبل المطبخ يوحى لنا بحجمها

وفى المشهد التالى يظهر شارلى أثناء الكشف الطبى فى القرعة العسكرية ، ويجعلونه يخلع ثيابه تماما . ثم ينظر فاذا بباب الطبيب المصنوع من الزجاج المصنفر يحمل اسم (فرانسيس) . ثم يظهر ظل وراء الباب يهم بفتحه فيتصور شارلى ان الطبيب امرأة ، ويهرب عاريا من باب آخر ، ليجد نفسه فى متاهة من المكاتب تفصلها حواجز زجاجية ، وتحتلها فتيات مشغولات بالعمل . وترفع احداهن رأسها ، فيختبىء هو وراء احد المكاتب ، كاشفا نفسه بذلك لعين فتاة أخرى وراءه . ثم يهرب اخيرا من احد الابواب ليجد نفسه وسط مزيد من المكاتب والحواجز الزجاجية مستبعدا اكثر فأكثر عن قاعدته .. الى أن يصل اخيرا الى عراء شرفة مكشوفة ، مجردا كما ولدته أمه ، مطلا على ممر تجارى صاخب تحته

وبالرغم من اننا صورنا هذا المنظر كله ، فاننا لم نستخدمه مطلقا . فقد رأيت من الافضل أن أجعل شارلى

نكرة لا تاريخ وراءه ، وأن نراه لاول مرة وهـو مجنـد بالفعل ..

واستغرق اعداد الفيلم وقتا طويلا ولم أكن راضيـا عنه . ونقلت هذا الاحساس الى كل من فى الاستوديو . ثم طلب دوجلاس فربانكس أن يشاهده . وجاء ومعه صديق له ، فحذرتهما قائلا اننى من فرط يأسى من الفيلم أفكر فى أن ألقى به كله فى صفيحة القمامة . وجلس ثلاثتنا فى قاعة العرض وحدنا . واذا بدوجلاس منذ البداية ينفجر فى نوبات من الضحك المتواصل ، ولا يتوقف الا من أجل نوبات من السعال . يا لجمالك يادوجلاس ! كان دائمـا أعظم جمهور لى . وعندما انتهى العرض وخرجنا الى ضوء النهار كانت عيناه دامعتين من فرط الضحك . فقلت غير مصدق نفسى :

ـ أتظن انه حقا مضحك الى هذا الحد ؟

فالتفت الى صديقه ، وكان تعليقه الوحيد ان قال له :

ـ ما رأيك فى هذا الرجـل ؟ كان يريد أن يلقى به فى صفيحة القمامة

وحقق فيلم (كتفا سلاح) نجاحا ساحقا . واسـتحوذ على (هروب الجنود) أثناء الحرب . ولكنه هو الاخر كان قد استغرق منى وقتا اطول مما قدرت ، وتكلف نفقات أكبر مما تكلف (حياة كلب)

وبدأت تتملكنى الان الرهبة فى ان اتفوق على نفسى . وظننت ان الشركة ـ فرست ناشونال ـ قد تمد لى يد العون . فمنذ عملت معهم وهم يتضخمون ، ويتعـاقدون مع غيرى من المنتجين والنجوم على ربع مليون دولار للفيلم الواحد ، وخمسين فى المائة من الارباح . وكانت هذه الافلام

أقل فى النفقات من أفلامى ، وأسهل فى الانتـاج ، وان كانت بكل تأكيد تدر ايرادا اقل فى شباك التذاكر

فلما تحدثت فى الامر مع مستر ج.ر. ويليامز ،رئيس مجلس ادارة فرست ناشونال ، قال انه سيعرض المسألة على المديرين . ولم أكن فى الواقع اطلب كثيرا وانما مجرد القدر الكافى لتغطية النفقات الاضافية ، التى لم تكن لتزيد عن المتفق عليه بأكثر من عشرة الاف او خمسة عشر الفا من الدولارات فى كل فيلم ، وقال لى ان هناك اجتمـاعا سيعقد فى لوس انجلس فى خلال أسبوع ، واننى أستطيع عندئذ ان اتحدث اليهم بنفسى

كان الموزعون فى تلك الايام جماعة من التجار بليـدة الحس .. والافلام بالنسبة اليهم مجرد بضاعة يساوى المتر منها كذا قرشا . وخيـل لى اننى أجـدت عرض قضيتى عليهم ، وتكلمت باخـلاص . وقلت لهم اننى فى حاجة الى زيادة قليلة لاننى انفقت اكثر مما كنت أتوقع. ولكنى كنت أشبه بعامل مصنع يطلب علاوة من جنـرال موتورز ! فما كدت أفرغ من كلامى حتى ساد الصمت . ثم بدأ الناطق بلسانهم يقول :

ـ اسمع ياشارلى . نحن رجال أعمـال . وانت قد وقعت عقدا ننتظر منك أن تفى به ..

قلت بايجاز :

ـ فى استطاعتى أن اسلمكم ستة افلام فى شهرين ، اذا كان ذلك الطراز من الافلام هو ماتريدون

فأجابنى الصوت الهادىء :

ـ هذه مسألة تخصك انت !

فاستطردت اقول :

ـ اننى أطلب الزيادة حتى أحتفظ بمستوى عملى .

وعدم اكتراثكم هذا يكشف عن افتقاركم الى الفهم وبعد النظر . انكم لا تتاجرون فى السجق كما تعلمون ، وانما تتعاملون مع الحماس الفردى ..

ولكن لم يكن هناك مايمكن أن يؤثر فيهم . ولم أستطع ان افهم سر هذا الموقف من جانبهم ، خاصة اننى كنت الورقة الرابحة الكبرى فى البلاد

ولكن أخى سيدنى قال لى :

ــ اعتقد ان لموقفهم علاقة بهذا الاجتماع المنعقد لرجال السينما . فهناك شائعات تقول ان جميع شركات الانتاج قد شرعت تندمج

وبعد ذلك بيوم تقابل سيدنى مع دوجلاس ومارى . فاذا بهما ايضا يشكان فى الامر ، لان عقودهما اوشكت انتنتهي دون أن تحرك شركة بارامونت ساكنا . وكان دوجلاس يرى ــ كسيدنى ــ ان لهذا ايضا علاقة باندماج الشركات. وقال :

ــ ستكون فكرة طيبة لو اننا أطلقنا فى أعقابهم مخبرا سريا لنعلم ما الذى يجرى !

فوافقنا جميعا على استئجار مخبر واتفقنا مع فتاة بالغة الذكاء والرشاقة والجاذبية . وسرعان ما حصلت على موعد مع ادارى كبير فى احدى شركات الانتاج الهامة ، وجاء فى تقريرها انها مرت به فى ردهة فندق الاسكندرية، وابتسمت له ، ثم اعتذرت بأنها ظنته صديقا قديما لها . وفى نفس الليلة دعاها الى العشاء معه . وكان ــ كما استخلصنا من التقرير ــ رجلا مغرورا ومدعيا وعبدا لشهواته . وطوال ثلاث ليال ظلت تخرج معه ، وتروغ منه بالوعود والاعذار . وحصلت خلال ذلك على تفاصيل القصة الكاملة لما يجرى فى محيط صناعة السينما .. فقد كان هو وزملاؤه يؤسسون احتكارا يضم جميع الشركات

برأس مال قدره ٤٠ مليـــون دولار ، ويرتبطون مع كل موزع فى الولايات المتحدة بعقود لمدة خمس سنــوات .
وقال لها الرجل انهم ينوون تعديل الاوضاع فى صنــاعة السينما على أسس تجارية خالصة ، بدلا من ان تظل تقودها حفنة من الممثلين الحمقى يتقاضون مبالغ خيالية
كان هذا جوهر قصتها . وكان يفى تمـاما بغرضنا . وذهبنا نحن الاربعة نعرض التقرير على جريفيث وبيل هارت .. فكان له عليهم نفس الاثر

***

وقال لنا سيدنى اننا نستطيع أن نهزم احتكارهم هذا اذا أعلنا للموزعين والعارضين اننا بسبيل تأسيس شركتنا الخاصة للانتاج ، واننا ننوى ان نبيع انتاجنا فى السوق الحر ، ونحتفظ باستقلالنا
ففى ذلك الوقت كنا نمثل اكبر مصدر للربح فى صناعة السينما كلها
علما انه لم يكن فى نيتنا فى البداية ان نسير فى الشوط الى نهايته . وانما كان هدفنا الوحيد ان نمنع العارضين من توقيع العقود بخمس سنوات مع الاحتـكار المزمـع انشاؤه ، على أساس انه بغير النجوم لن تكون له قيمة . وقررنا أن نظهر معا فى تلك الليلة فى صالة الطعـام بفندق الاسكندرية ــ قبل أن يعقدوا اجتماعهم ــ ونعلن تصريحا للصحف
وجلسنا فى تلك الليلة انا ومارى بيكفورد ، وجريفيث، وهارت ، ودوجلاس فيربانكس ، حول مائدة واحدة فى قاعة الطعام الرئيسية
فكان الاثر أقرب الى مس الكهـــرباء . وكان (ج.ر. ويليامز) اول من دخل الى القاعة خالى الذهن ، فما كاد يرانا حتى عاد أدراجه على الفور . وتوافد المنتجون واحدا



شارلى شابلن يصلح حذاء ابنته فيكتوريا

بعد الاخر ، يطل كل منهم خلال الباب ، ويلقى نظرة ، ثم يعود أدراجه على استعجال .. بينما نحن جالسون نتحدث حديث كبار الاعمال ، ونكتب على مفرش المائدة ارقاما خيالية . وكلما دخل أحد المنتجين أسرع دوجلاس يتحدث الينا بأى كلام فارغ :

ــ ان الكرنب على الفول السودانى والبقالة فوق لحم الخنزير لها ذوق كبير فى هذه الايام !

حتى خيل الى جريفيث وبيل هارت أنه قد جن !

وسرعان ما توافدت نصف دستة من رجال الصحافة حول مائدتنا ، وراحوا يكتبون ما نصرح به حول مشروعنا فى تأسيس شركة من (الفنانين المتحدين) لحماية استقلالنا ، ومقاومة الاحتكار المقبل

وظهرت القصة فى الصفحات الاولى

وفى اليوم التالى عرض علينا أكثر من رئيس لشركات الانتاج ان يستقيل من وظيفته ويرأس شركتنا فى مقابل مرتب صغير ونسبة من الارباح . فكان رد الفعل هذا سببا فى اننا قررنا السير فى مشروعنا

وهكذا تأسست (شركة الفنانين المتحدين) ..

الفصل الثانى

متاعب عائلية

* زواجى ..
* لم أستطع أن أنفذ الى عقل زوجتى !
* كيف اكتشفت جاكى كوجان ؟
* عشرون رجلا يهزمهم طفل

لو لم يدق جرس التليفون فى تلك اللحظة ، وانا على وشك مغادرة النادى ، لكان محتملا أن يتغير مجـــرى حياتى . كان المتحدث هو سام جولدوين ، يسألنى هل احب أن ازوره فى بيته المطل على الشاطىء لآخذ حماما فى البحر ؟ ..

كنا عندئذ فى النصف الثانى من عام ١٩١٧ . وكانت امسية صافية ، بهيجة . واذكر ان « أوليف توماس » الجميلة كانت هناك هى وسرب كبير من الحسنــاوات . وعندما اوشك اليـوم ان ينقضى وصلت فتــــاة تدعى ميلوريد هاريس ، يرافقها رجل اسمه مستر هــام . وبدت الفتاة فى عينى جميلة . ولكن أحد الحاضرين أشار الى انها شديدة الشغف « باليوت ركستــر » الذى كان موجودا هو الاخر . ولاحظت انها بالفعل تلاحقــه طول الوقت . وان كان هو لا يلقى بالا اليها

ولم أفكر بعد ذلك فيها الا حين جاءت ــ وانا أستعد للانصراف ــ تسألنى اذا كان ممكنا أن آخذها معى الى المدينة . فهى قد تخاصمت مع صديقها ، وتركها بالفعل وانصرف

وبينما نحن فى السيارة مضيت ألمح تلميحا خفيفا الى أنه ربما كان صديقها قد غار من اليوت ركستر . فاعترفت بأنها بالفعل ترى اليوت رجلا رائعا

وشعرت بأن عبثها الصبيانى هذا ليس الا حيلة اغراء

أنثوية الاهتمام حول نفسها .. فقلت لها :
ــ لاشك انه رجل محظوظ

وقضيت بقية الوقت فى ثرثرة تافهة معها ، اخبرتنى أثناءها انها كانت تعمل لحساب لويس ويبر ، ولكنها ستبدأ من الآن تؤدى أدوار البطولة فى افلام باراموننت . وعندما تركتها عند بيتها كان الاثر الذى خلفته فى نفسى هو انها فتاة صغيرة نزقة . وعدت الى النادى مرتاحا الى التخلص منها والانفراد بنفسى . ولكننى ما كدت أقضى فى غرفتى خمس دقائق حتى دق جرس التليفون : واذا بها مس هاريس ، تقول بسذاجة :

ــ فقط أردت أن أعرف ماذا تفعل !

فأدهشنى ان تتصرف معى هكذا كما لو كنا عاشقين متيمين منذ زمن بعيد . وقلت لها ان كل ما افعله هو اننى أستعد لتناول العشاء فى غرفتى ، ثم الذهاب راسا الى فراشى وقراءة كتاب

فقالت بأسف : « أوه ! »

ولكنها أرادت ان تعرف ما نوع الكتاب ، وما شكل الحجرة . وقالت انها وهى تكلمنى تتصورنى وأنا وحيد منطو فى فراشى

واذا بهذا الحديث العابث يثير شغفى واستعذب مافيه من زقزقة ودلع . فلما سألتنى :

ــ متى سأراك مرة أخرى ؟

وجدت نفسى أعرض ــ مازحا ــ بأنها بذلك تخون اليوت . وأنصت باهتمام اليها وهى تؤكد ان اليوت فى الحقيقة لا يعنيها فى شىء .. فكان هذا كافيا للاحاطة بالبرنامج الذى وضعته لليلتى . ودعوتها الى الخروج لتناول العشاء ..

ولم أفكر فيها مرة اخرى الا فى منتصف الاسبوع ،

عندما أخبرني هارنجتون (سكرتيري ووصيفي) انهـــا طلبتني في التليفون . ولولا انه عندئذ أدلى لي بملاحظـة معينة لكان ممكنا ألا أكترث برؤيتها مرة اخرى . ولكن الذي حدث هو انه ذكر لي ان سائق سيارتي أخبره بأنني عندما غادرت بيت سام جولدوين كانت معي أجمل فتـاة شاهدها في حياته . فاستثارت هـــذه الملاحظة التافهة غروري . وكانت البداية ..

فمنذ ذلك الوقت كان هناك أكثر من عشاء ، وأكثـر من سهرة راقصة ، وليلة قمرية ، ونزهة بالسيـارة على شاطىء المحيط . وحدث مالم يكن منـــه بد ـ اذ بدأت ميلوريد تشعر بالقلق

واحتفظ توم هارنجتون بوجهة نظره لنفسه . فلمـا أعلنت له ذات صباح بطريقة عابرة ـ بعد أن أحضر لي طعام الافطار ـ انني أريد أن أتزوج ، لم يختلج له جفن . وسأل بهدوء تام :

ـ في أي يوم ؟

ـ ما اليوم الذي نحن فيه ؟

ـ نحن في يوم الثلاثاء

فقلت دون أن ارفع رأسي عن صحيفتي :

ـ فليكن اذن يوم الجمعة

ـ انها بالطبع مس هاريس

ـ نعم ..

فهز رأسه مؤمنا :

ـ هل لديك الدبلة ؟

ـ كلا . يحسن أن تحصل لي على واحدة . وان تتخذ كل الترتيبات اللازمة .. ولكن بهدوء

فهز رأسه مرة أخرى .. ولم نعد الى الموضوع بعد ذلك الا يوم الزفاف . وكان قد اعد الترتيبات بحيث نتزوج في

الثامنة من مساء يوم الجمعة

وكنت في ذلك اليوم قد لبثت أعمل فى الاستديو حتى ساعة متأخرة . فجاءنوم‌فى‌السابعة والنصف الى‌البلاتوه، وهمس فى اذنى :

ــ لا تنس أن لديك الليلة موعدا في الثامنة

فانقبض قلبى ، واسرعت ازيل الماكياج وارتدى ثيابى بمساعدته . ولم نتبادل كلمة واحدة الا بعد ان جلسنا فى السيارة . فعندئذ أوضح لى اننى سأقابل مس هاريس فى بيت مستر سباركز ، موثق المنطقة

وعندما وصلنا الى هنـــاك كانت ميلوريد جالسة فى الصالة . وابتسمت لنا عند دخولنـــا ابتسامة ذليلة ، فشعرت بالاسف من اجلها . وكانت ترتدى ثوبا بسيطا رمادى اللون ، وتبدو بارعة الجمال . واسرع هارنجتون يدس خاتم الزواج فى يدى بينما كان يقودنا رجل طـويل نحيل ، عطوف ، الى حجرة أخرى

وكان هذا هو المستر سباركز الذى قال :

ــ فى الحقيقة ياشارلى .. لم أكن أعلم ان لديك مثـل هذا السكرتير الممتاز . تصور اننى لم أعرف ان العريس هو أنت الا منذ نصف ساعة !

وكانت‌الاجراءات بسيطة وجادة الى‌حد مزعج : وضعت الخاتم الذى أعطانى اياه هارنجتون فى اصبعها ، فصرنا زوجين ! وانتهت الاجراءات ! وبينما نحن نتأهب لمغـادرة المكان ، ارتفع صوت مستر سباركز :

ــ لا تنس أن تقبل عروسك ياشارلى !

فابتسمت : « أوه . نعم . بالطبع ! »

كانت أحاسيس مختلطة . وكنت أشعر اننى سقطت فى شباك نسجتها ظروف هوجاء لا مبرر لها . رباط ليس

له أساس من الضرورة . غير اننى كنت قبل ذلك أحن دائما الى ان تكون لى زوجة . وميلوريد كانت شابة ، وجميلة ، لم تكد تبلغ التاسعة عشرة . وبالرغم من ان عشرة أعوام كانت تفصل بين سنى وسنها فمن يدرى ، لعل كل شيء ينتهى الى مايرام

وفى الصباح التالى ذهبت الى الاستديو بقلب مثقل . وكانت اونا بورفيانس هناك وقد قرأت صحف الصباح ؛ فلما مررت أمام حجرة ملابسها ظهرت أمام الباب وقالت برقة : « مبروك » فأجبت : « شكرا »

ثم واصلت طريقى الى غرفة ملابسى ، وقد أثارت أونا الارتباك فى نفسى

***

صارحت دوج بأن ميلوريد ليست من ذوات العقل الراجح . واننى لا اريد على اية حال أن اتزوج دائرة معارف ، فغذائى العقلى استطيع أن أحصل عليه من اية مكتبة . ولكن هذه النظرية المتفائلة كانت تستر وراءها قلقا خفيا : هل سيؤثر الزواج على عملى ؟ ان ميلوريد شابة ، وجميلة ، ولكن هل معنى ذلك اننى يجب أن أكون دائما على مقربة منها ؟ وهل هذا هو ما أريد ؟ كنت فى دوامة . وبالرغم من اننى لم أكن عاشقا ، الا اننى كنت أريد ـ ما دمت قد تزوجت ـ ان يكون النجاح حليفى ، وحليف هذا الزواج

ولكن الزواج لم يكن بالنسبة الى ميلوريد غير مغامرة مثيرة كالفوز فى مسابقة للجمال . كان شيئا قرأت عنه فى الروايات . ولم يكن لديها اى فهم للواقع . وكلما

حاولت أن أحدثها بجد عن مشاريعنا لا ينفذ شيء مما اقول الى نفسها . فهى دائما ابدا زائغة العقل !

بعد زواجنا بيوم واحد عرض عليها لويس ماير (من شركة متروجولدوين) أن تتعاقد معهم على ستة أفلام فى السنة فى مقابل خمسين ألف دولار . فحاولت اقناعها بألا توقع :

ـ اذا كنت ترغبين فى مواصلة العمل فى السينما ففى استطاعتى أن أحصل على خمسين ألف دولار للفيلم الواحد ..

فهزت رأسها مؤمنة على كل ما اقول بابتسامة كابتسامة « الجيوكندة » . ولكنها بعد ذلك وقعت العقد !

وكان الذى يغيظ فى الامر هو هذه المسايرة وهزات الرأس من جانبها ، ثم الاقدام على فعل العكس تماما . قضقت بها ، وبماير الذى جاء يقيدها بعقد من جانبه قبل أن يجف مداد عقد زواجنا

وبعد ذلك بشهر بدأت تواجه بعض المتاعب مع الشركة وطلبت منى أن أقابل ماير لاسوى معه الامور . فقلت لها اننى لن اقابله بأى حال . ولكنها كانت قد دعته بالفعل الى العشاء فى بيتنا ولم تخبرنى بالامر الا قبل وصوله بلحظات . فاستبدت بى الثورة والحنق :

ـ اذا جئت به الى هنا فاننى سأهينه !

واذا بجرس الباب يدق وأنا لم أكد افرغ من نطق هذه الكلمات . فقفزت كالارنب الى حجرة زجاجية لتربية الزهور مجاورة لغرفة الجلوس . وكانت حجرة لا منفذ منها الى الخارج

وظللت مختبئا هناك فترة بدت لى بلا نهاية ، بينما جلس ماير وميارويد فى حجرة الجلوس على قيد خطوات

منى يناقشان شئونهما • وراودنى الاحساس بأن ماير يعلم باختبائى ، اذ بدا لى حديثه منمقا وأبويا • وبعـــد لحظات ورد ذكرى ، فقالت ميلوريد اننى قد لا أجىء • وعلى أثر ذلك سمعت حركة فى الغرفة ، فذعرت خوفا من أن يكونا قادمين الى حجـــرة الزهور حيث اختبىء • وأسرعت أتظاهر بأننى نائم

على أن الذى حدث هو أن ماير اصطنع عذرا للانصراف وخرج دون أن ينتظر العشاء

وبعد زواجنا بعدة اشهر وجدت اننى لم انتج غير فيلم واحد من ثلاث لغات « الخلاء المشمس » • ولم انتجه الا بخلع الضرس • فأدركت أن الزواج قد أثر فى قدرتى على الخلق تأثيرا لا جدال فيه ••

***

بعد فيلم « الخلاء المشمس » كنت فى حاجة ماسة الى العثور على فكرة فيلم جديد • فكان مما يروح عن نفسى — وأنا فى هذه الحالة اليائسة — أن أذهب الى المسرح لاشغل ذهنى بشىء آخر ••

وهناك رأيت — وأنا فى هذه الحالة — راقصا لافتـــا للنظر . . لا لانه كان مختلفا عن غيره ، ولكن لانه فى نهاية رقصته استدعى الى المسرح ابنه الصغير ، وكان طفلا فى الرابعة من العمر ، لكى يحيى الجمهور معه

وبعد أن انحنى الطفل مع والده للمتفرجـين ، انطلق فجأة يؤدى عدة خطوات راقصة طريفة ، ثم نظـــر الى المتفرجين نظرة ذكية ، ولوح لهم بيده وخرج

وانفجر المتفرجون فى ضحكات عالية الى حد ان الطفـل استدعى من جديد ، ليؤدى هذه المرة رقصة مختلفة تماما ،

رقصة كان يمكن أن تكون سخيفة لو أداها طفل آخـر .
ولكن « جاكى كوجان » كان ساحرا ، واستمتع الجمهور تماما برقصته . فقد كان فى كل ما يفعله يتمتع بشخصية آسرة ..

ولم أفكر فى جاكى مرة اخرى الا بعد اسبوع ، وانـا جالس على حافة انبلاتوه مع هيئة الاستديو ، اعصر ذهنى بحثا عن فكرة للفيلم الجديد . ففى تلك الايام كنت كثيرا ما أجلس أمامهم ، لان وجودهم وتجـــاوبهم معى كان يساعدنى على تنشيط ذهنى . والحقيقة اننى كنت فى ذلك اليوم يائسا ، مشتت الذهن ، واثقا ــ برغم أبتساماتهـم المهذبة ــ انه لا جدوى من محاولاتى . ومضت افكـارى تتخبط تائهة . وأخذت أحدثهم عن النمر التى شهدتهـا فى المسرح ، وعن الطفل الصغير جاكى كوجان الذى جاء وانحنى يحيى الجمهور مع والده

وقال احدنا عندئذ أنه قرأ فى الجريدة الصباحية أن جاكى كوجان قد تعاقد على فيلم مع روســـكو أرباكل . فدهمنى النبأ كالصاعقة . سبحان الله ! لماذا لم تخطـــر ببالى هذه الفكرة ؟ انه ولا شك يستطيع ان يكون رائعـا فى الافلام ! ومضيت أعدد امكانياته ، والحكايات والفصولات التى كان يمكن أن أمثلها معه ..

وتزاحمت الافكار فى خيالى :

ــ ما رأيكم فى الصعلوك يحترف اصـــلاح النوافذ ، والطفل يسرح فى الطرقات يحطم هذه النـــوافذ ، حتى يستدعى الصعلوك لاصلاحها ؟ كم تكون رائعة حياة الطفل والصعلوك معا ، وقيامهما بمختلف ألوان المغامرات ! ..

وهكذا قضيت يوما كاملا وانا جالس فى مكانى اطـور القصة ، وأصفها مشهدا مشهدا ، والممثلون من حولى ينظرون الى فى حرج وهم يتساءلون فيما بينهم لماذا أتحمس الى

هذا الحد لقضية خاسرة . ومضت الساعات وانا أبتكر المواقف والمواضيع • ثم تذكرت فجأة :

ـ ولكن ما الفائدة ؟ لقد تعاقد معه آرباكل ، ولعل لديه الآن نفس أفكارى هذه . كم كنت غبيا عندما لم أفكر فى ذلك قبله !

ولم أستطع طوال تلك الأمسيه ، وطوال الليل أيضا ، أن أفكر فى شيء آخر غير الامكانيات التى تتيحها قصة امثلها مع هذا الطفل

وفى الصباح التالى دعوت الفرقة ـ وأنا فى حالة معنوية سيئة ـ الى اجراء بروفة • ويعلم الله وحده ما الذى جعلنى أفعل ذلك ، اذ لم يكن لدى شيء اجرى عليه بروفات . ولهذا جلست معهم فى البلاتوه وانا فى حالة من التعاسة الشديدة . واقترح أحدهم أن احاول البحث عن طفل آخر . طفل زنجى مثلا . ولكننى هززت رأسى فى غير حماس . فقد كان من الصعب أن اعثر على طفل يتمتع بمثل الجاذبية الشخصية التى يتمتع بها جاكى

ثم فجأة ، حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف ، وصل كارليسل روبنسون ـ مدير دعايتنا ـ لاهثا ، منفعلا :

ـ ان الذى تعاقد معه آرباكل ليس جاكى كوجان ؛ وانما والده جاك كوجان !

فوثبت من مقعدى وصرخت :

ـ اسرع ! أطلب الوالد تليفونيا ، وأخبره ان يحضر هنا فى الحال • لأمر هام جدا !

وأصابتنا الانباء جميعا بمس من الكهرباء . وأقبل بعض الممثلين نحوى يضربوننى على ظهرى من فرط السرور والحماس . وعندما سمع موظفو الادارة بالامر جاءوا أيضا

الى البلاتوه لكى يهنئوننى . ولكننى لم أكن قد تعاقدت بعد مع جاكى . وما زال محتملا ان تطرأ نفس الفكرة فجأة علي ذهن آرياكل . ولهذا طلبت من روبنسون ان يكـــون حذرا فى حديثه التليفونى ، ولا يشير الى الطفل بأية كلمة:

ــ ولا تقل للوالد نفسه أى شيء قبل ان يصل الى هنا . لاتقل له اكثر من ان المسألة عاجلة جدا ، وأننا يجب أن نراه على الفور ، خلال نصف ســـــاعة . فاذا كان لا يستطيع المجيء فاذهب اليه فى الاستديو . ولكن لا تقل له أى شيء قبل أن تجيء به الى هنا

ولم يكن العثور على الوالد سهلا ، اذ انه لم يكن فى الاستديو . فقضيت ساعتين فى حالة من التوتر العصبى الفظيع ..

وأخيرا وصل الوالد مضطربا ، مندهشا ، فأطبقت بكلتا يدى على ذراعيه وأنا اهتف :

ــ سيكون قنبلة مثيرة ! سيكون أعظم حادث عـــلى الاطلاق ! ولن يكون عليه ان يمثل الا هذا الفيلم الواحد !

واستطردت بهذا الاسلوب المضطرب حتى لقد ظننى فقدت عقلى :

ــ ان هذا الفيلم سيمنح ابنك فرصة العمر !

ــ ابنى ..

ــ نعم ، ابنك ، اذا سمحت لى به من أجل هذا الفيلم فقط ..

ــ وماذا فى ذلك ؟ فى استطاعتك طبعا ان تأخذه !

يقولون ان الاطفال والكلاب هم أحسن من يمثل فى الافلام .. ضع طفلا فى شهره الثانى عشر فى البانيو ومعه قطعة من الصابون ، فانه ما يكاد يبدأ محاولاته للامساك

بها حتى ينير عواصف من الضحك • ففى الاطفال جميعاً صورة او آخرى من العبقرية ، وسر اللعبه هو أن تعرف كيف تستخلصها منهم • وقد كان ذلك سهلا مع جاكى • فسرعان ما أتقن القواعد الاساسيه القليلة التى كان عليه أن يتعلمها فى فن التمثيل الصامت • وكان فى استطاعته ان يضيف الانفعال الى الحركة ، والحركة الى الانفعال ، وأن يكرر ذلك مرة بعد أخرى دون أن يفقد الايحـــاء بالتلقائية ••

كان فى فيلم « الطفل » منظر يهم فيه الطفل بأن يقذف احدى النوافذ بحجر بينما يتسلل أحد عساكر البوليس ويقف وراء ظهره • فاذا ما تراجعت يد الطفل الى الوراء ليقذف بالحجر لمست بدله العسكرى • ويرفع الطفــل عندئذ رأسه ، ويراه ، فيتظــاهر بأنه يلعب بالحجر ، ويمضى يطوحه فى الهواء ويلتقطه عدة مرات ، ثم يلقى به بعيدا فى براءة •• ويمضى فى طريقه متمهلا أول الامر ، ثم طائرا كالسهم فجأة

وأجرى جاكى بروفة هذا المنظر ثلاث مرات او اربعا فصار متمكنا من الحركة الى حد ان الانفعـــال أصبح يصحبها بشكل طبيعى • أى ان الحركة ـ بعبارة اخرى ـ كانت تستثير فيه الانفعال • وكان هذا المشهد من افضل مشاهده ، ومن ابرز القمم العالية فى الفيلم كله

على أنه لم تكن كل المشاهد بالطبع تنفذ بهذه السهولة فغالبا ما كانت تتعبه المشاهد الابسط كما هو الحــال دائما . وقد أردت منه ذات مرة أن يتأرجح بشكل طبيعى على حافة باب ، فاذا به ـ لافتقاره الى أية فكرة تشغل ذهنه ـ يعجز عن الاندماج . واضطررنا الى الاستغناء عن المنظر ••

وسرعان ما انتهى عقد والد جاكى مع آرباكل ، فصار فى استطاعته أن يلازم ابنه فى الاستديو . وقام فيما بعد بتمثيل دور النشال ، وكانت له مساعدات قيمة فى بعض الاحيان . ففى أحد المناظر أردت أن أجعل جاكى يبكى بكاء حقيقيا أثناء قيام اثنين من موظفى الملجأ بانتزاعه منى. ومضيت لهذا الغرض أروى له كافة ألوان الحكايات المفزعة ، ولكنه ظل فى حالة من الابتهاج والخبث لا حدود لها

واذا بالوالد — بعد انتظار ساعة كاملة — يقول لى :

— سأجعله يبكى

قلت وفى نفسى احساس بالذنب :

— حذار أن تفزعه أو تؤذيه

فأجاب : « لا .. لا .. لا .. »

وكان جاكى فى حالة من الابتهاج الشديد الى حد أن قلبى لم يطاوعنى أن أبقى وأرى ما سيفعل به والده ، فذهبت الى حجرة الملابس . وما كادت تمضى لحظات حتى بلغنى صوت بكائه وصراخه !

ثم جاء الوالد بقول : « انه مستعد تماما »

وكنت فى هذا المشهد أستنقذ الطفل من براثن موظفى الملجأ ، وبينما هو يبكى أربت أنا عليه وأقبله . وبعد أن فرغنا من المنظر سألت الوالد :

— كيف جعلته يبكى ؟

— لا شىء أكثر من أننى أنذرته اذا لم يبك بأن ننزعه من الاستديو ونرسله بالفعل الى ملجأ

فتحولت الى جاكى وضممته بين ذراعى لاهدىء من روعه . كان خداه ما زالا مبتلين من أثر الدموع .وقلت له:

— لن يأخذك احد من هنا

فاذا به يهمس لى :
ــ أعلم ذلك ، لقد كان بابا يهوشنى فقط !

***

أثناء القيام بمونتاج «الطفل» زار الاستديو صامويل رشفسكى ، بطل الشطرنج العالمى الذى كان طفلا هـــو الاخر .. فى السابعة من عمره !

كان مقررا أن يقدم عرضا فى النادى الرياضى ، يلعب فيه ضد عشرين رجلا فى وقت واحد ، من بينهم بطـــل كاليفورنيا « دكتور جريفث » . وكان طفلا ذا وجه شاحب، مدبب الملامح ، وعينين واسعتين تنظران فى تحدالى الغرباء. وكان البعض قد حذرونى مقدما ، وقالوا لى انه غلام عصبى، ونادرا ما يصافح أى انسان .

وبعد أن قام مدير اعماله بتقديم كل منـــا الى الآخر ، وقف الغلام يحملق فى وجهى دون ان يتكلم . فاستأنفت عملى فى المونتاج ، صارفا نظرى الى لقطات الفيلم

وبعد لحظات تحولت اسأله :

ــ هل تحب الخوخ ؟

فأجاب :

ــ نعم

ــ حسن . لدينا شجرة مليئة به فى الحديقة .تستطيع ان تتسلقها وتقطف بعضا منه . وان تحضر واحدة لى فى نفس الوقت ..

فأضاء وجهه :

ــ أوه .. عظيم ! أين الشجرة ؟

قلت مشيرا الى مدير دعايتنا :

ــ سيريك اياها كارل

وبعد ذلك بربع ساعة ، عاد مبتهجا ومعه كثير من الخوخ • وكانت هذه بداية صداقتنا

وسألنى : « هل تلعب الشطرنج ؟ »

فاعترفت باننى لا أستطيع

فقال متفاخرا :

ــ سأعلمك . تعال الليلة لترانى العب . سألاعب عشرين رجلا فى وقت واحد

فوعدته بالحضور ، وقلت له اننى سأدعوه الى العشاء بعد ذلك • فقال : « حسن • سأفرغ منهم بسرعة ! »

ولم يكن ضروريا أن يفهم الانسان فى الشطرنج لكى يدرك غرابة ما جرى فى تلك الليلة : عشرون رجلا فى منتصف العمر مكبون على رقعات الشطرنج ، وقد بلبلهم طفل فى السابعة يبدو أصغر حتى من سنه • فمجرد مراقبته وهو ينتقل بينهم الى المائدة نصف المستديرة كان فى حد ذاته مسرحية مثيرة

كان الغلام مذهلا . ولكنه أثار فى نفسى القلق .. فقد أحسست وأنا اراقب وجهه الصغير يحتقن ثم يشحب من كثرة الجهد والتركيز •• انه يدفع الثمن من صحته ••

ويصيح أحد اللاعبين :

ــ هنا ••

فيتجه الغلام اليه ، ويفحص الرقعة ثوانى معدودة ، ثم بحسم شديد يقوم بنقله ، أو يقول :

ــ كش مات !

فتسرى همهمات ضاحكة بين صفوف المتفرجين

وقد تعهدته بنفسى بقتل ثمانية ملوك متواليه فى سرعة خارقة ، الامر الذى أثار قهقهة عالية ، وعاصفة من التصفيق ثم اتجه بعد ذلك الى رقعة الدكتور جريفث . وصمت

المتفرجون ، وبعد ان قام بنقلة مفاجأة ، تحول برأسهورآنى فأضاء وجهه ، ولوح لى بما معناه أنه لن يتأخر كثيرا

وبعد أن قتل ملوك عدد آخر من اللاعبين ، تحول الى الدكتور جريفث الذى كان يفحص الرقعة بتركيز شديد

وقال الطفل فى ضيق شديد :

ـ ألم تنقل بعد ؟ ..

فهز الدكتور رأسه :

ـ أوه . هيا أسرع !

فابتسم جريفث

فنظر الغلام اليه نظرة حادة ، وقال :

ـ لن تستطيع أن تهزمنى ! اذا نقلت هنا نقلت أناهناك! واذا حركت هذه القطعة حركت أنا تلك !

ومضى يعدد ـ فى تتابع سريع ـ سبع نقلات أو ثمانى ععدما .. ثم قال :

ـ بهذه الطريقة سنظل هنا طول الليل . فلنتفق اذن على أن تكون النتيجة التعادل ..

ووافق الطبيب !

الفصل الثالث

صراع على المـــال

* طلاقى .. !
* حملت الفيلم وهربت به من المحضرين !
* كيف عشت فى بيت سائق تاكسى ؟
* لم أعد أحترم التجار

بالرغم من حبى لزوجتى ، فان كلا منا لم يكن يصلح على الاطلاق للآخر . لم يكن خلقها سيئا ، ولكن كانت لهـــا طبيعة القطة • ولم أستطع أبدا أن أنفذ الى عقلها الموشى بنماذج ملونة من الحمق !

كانت دائما متقلبة ، ودائما تتطلع الى آفاق جديدة . وبعد زواجنا بعام ولد لنا طفل ، ولكنه لم يعش غير ثلاثة أيام . فكان هذا بداية أفول نجم زواجنا . وبالرغم من وجودنا تحت سقف واحد فاننا لم نعد نلتقى الا نادرا • فهى مشغولة بعملها بقدر ما أنا مشغول بعملى . وصـــار بيتنا بيتا حزينا ، كلما عدت اليه وجدت المائدة معـــدة لشخص واحد ، وتناولت طعامى وحيدا . وكانت فى بعض الاحيان تغيب أسبوعا دون أن تترك وراءها كلمة ، فلا أعرف أنها غائبة الا من الباب المفتوح لغرفة نومها الخالية

واخيرا وقعت الفرقة . وكان ذلك أثناء الاعداد لمونتاج فيلم الطفل • كنت أقضى عطلة آخر الاسبوع عنـــد آل فيربانكس (اذ كان دوجلاس ومارى قــد تزوجا الآن) . ونقل الى دوجلاس ما يتردد من شائعات حول ميلوريد قائلا : « أعتقد أنك يجب أن تعرف »

ولكن ما مدى صحة هذه الاشاعات ؟ ذلك هـــو ما لم ارغب اصلا فى التحقق منه . وعندما واجهت بها ميلوريد انكرتها فى برود . فقلت لها :

ــ على أية حال نحن لا نستطيع أن نواصل حياتنا هكذا

فساد صمت قصير • ثم نظرت ميلوريد الى نظرة باردة وسألت : « ماذا تريد أن تفعل ؟ »

وكانت تتكلم بغير ادنى انفعال ، حتى لقد صدمت قليلا. وشرعت أقول بلهجة هادئة :

ـ أعتقد اننا .. اننا .. يجب أن ننفصل

وتساءلت ماذا سيكون يا ترى رد الفعل عليها • ولكنها لم تقل شيئا ، فاستطردت بعد صمت قصير :

ـ اعتقد ان كلا منا سيكون أسعد حالا . فأنت شابة، وما تزال الحياة منبسطة أمامك . وكل شيء يمكن بالطبع أن يتم بروح ودية • ففي استطاعتك أن ترسلي محاميك لمقابلة محامي •• وكل ما ترغبين فيه يسوى بينهما

فقـــالت :

ـ كل ما أرغب فيه قدر من المال يكفي لرعاية أمي

فتطوعت قائلا :

ـ لعلك تفضلين أن نناقش الامر فيما بيننا ؟

ولكنها بعد ان فكرت لحظة ، قالت :

ـ اعتقد أنني أفضل مقابلة المحامي

فأجبت :

ـ لا بأس . اما في الوقت الحاضر فستبقين انت في البيت وانتقل انا الى النادي الرياضي

وافترقنا بروح ودية ، بعد ان اتفقنا على أنها ستطلب الطلاق على اساس « القسوة العقلية » ، واننا لن نصرح للصحافة بأي شيء

وفي الصباح التالي قام وصيفي توم هارنجتون بنقل أمتعتي الى النادي الرياضي • فكانت هذه غلطة من جانبي اذ انتشر نبأ انفصالنا بسرعة ، وشرع الصـــحفيون يتصلون تليفونيا بميلوريد • وجاءوا أيضا الى النادي ، ولكنني رفضت أن أراهم أو أصرح لهم بشيء • أما هي ،

فقد بادرت بقنبلة فى الصفحة الاولى ، معلنة أننى هجرتها، وأنها ستطلب الطلاق بسبب القسوة العقليـــة • وكان الهجوم خفيفا بالطبع اذا ما قورن بمقاييس أيامناالحاضرة على أننى اتصلت بها لاعرف ما الذى جعلها تقـــابل الصحفيين • ففسرت ذلك بأنها فى البـــداية رفضت ، ولكنهم قالوا لها اننى أدليت بتصريح خطير جدا وكان ذلك بالطبع كذبا يحاولون به تضخيم الخلاف بيننا • فقلت لهم ذلك •• ووعدتنى هى بألا تدلى بأية تصريحات أخرى •• ولكنها فعلت !

وكان القانون فى كاليفورنيا يعطيها الحق فى الحصول منى على ٢٥ ألف دولار• فعرضت عليها مائة ألف ،فوافقت على قبولها كتسوية نهائية • ولكنها فى اليوم المحـــدد لتوقيع الاوراق النهائية عدلت فجأة ، ودون أن تصرح بأى سبب ••

ودهش المحامى وقال لى :

ــ فى الجو رائحة شىء ••

وقد كان •• !

ففى تلك الايام كانت بينى وبين « فرست ناشونال » خلافات حول فيلم الطفل • اذ كان الفيلم طويلا من أربع بكرات ، وكانوا يريدون أن يوزعوه على أساس آنه ثلاثة أفلام من بكرتين • وكان معنى هذا ألا يدفعوا لى عن فيلم الطفل الا ٤٠٥ ألف دولار • ولما كنت قد انفقت عليه حوالى نصف مليون ، بالاضافة الى ١٨ شهرا من العمل ، فقلت لهم اننى لن أسمح بذلك ولو شـــاب الغراب • وتبادلنا التهديدات باللجوء الى القضاء • ولما كانوايعرفون أن فرصهم ضئيلة من الناحية القانونيـــة ، فقد قرروا العمل من خلال ميلوريد للوصول الى الفيلم والحجز عليه باسمها !

ولما كنت لم أفرغ بعد من مونتاج الفيلم ، فقد ألهمتنى غريزتى أن أستكمله فى ولاية أخرى • وهكذا سافرت الى مدينة « سولت ليك » مع اتنين من المساعدين وحـــوالى ٤٠٠ ألف قدم من الشرائط موزعة على خمسمائة بكرة

وأقمنا فى فندق « سولت ليك » ، حيث فتحنا علب الشرائط فى احدى غرف النوم ، واستخدمنا كل قطعة من الاثاث ــ سواء كانت شماعة أو درجا أو دولابا ــ لكى تعلق عليها البكرات • ولما كان القانون يمنع الاحتفاظ بكل ما هو سريع الاشتعال فى الفندق ، فقد كان علينا أن نعمل سرا • وفى هذه الظروف الصعبة استأنفنا مونتاج الفيلم • وكانت لدينا أكثر من ألفى لقطة علينا أن نفرزها جميعا • ومع أنها كانت تحمل أرقاما ، فاننـــا فى بعض الاحيان كنا نفقد الاثر ، ونقضى الســـاعات نبحث عن احداها فوق السرير وتحت السرير وفى الحمام الى أن نجدها • وبرغم هذه العقبات التى تدفع الى اليـــأس ، وبرغم الافتقار الى الادوات اللازمة ، فأننا اســتطعنا ــ بمعجزة ما ــ أن نفرغ من العملية

ولم يكن أحد قد شاهد الفيلم غير هيئة الاستديو • وعندما عرضناه كاملا على جهاز المونتاج لم يبد لنا أن ما فيه يضحك أو يسلى • ولم نستطع أن نطمئن أنفسنا الا بالاعتقاد بأننا فقدنا الحماس تجاهه

وقررنا عندئذ أن نجتاز به الامتحان القاسى ، ونعرضه فى دار السينما المحلية دون اعلان سابق • وكانت الدار واسعة ، وممتلئة حتى ثلاثة أرباعها بالمتفرجين • وجلست يائسا فى انتظار ظهور الفيلم وقد بدا لى أن هـــــذا الجمهور بالذات ليس مســـــتعدا للعطف على أى شىء أقدمه له ••

وبدأت أشك فى سلامة تقديرى بشـــــأن ما يحبه الجمهور وما يستجيب له فى الكوميديا • فقد أكون وقعت فى خطأ ما • وقد يطيش سهم العمل كله ، ولا يفهمه جمهور المشاهدين • وراودنى الخاطر المزعج بأن الفنان الكوميدى يمكن فى بعض الاحيان أن تكون أفكاره عن الكوميديا مسرفة فى الخطأ

وفجأة وتب قلبى الى حلقى وقد ظهر على الستار عنوان: «شارلى شابلن فى أحدث أفلامه •• الطفل » واذا بصيحات ابتهاج تنعالى من صفوف المتفرجين ، وتصفيق موزع هنا وهنـــاك • ولكن ذلك ــ على العكس ــ أزعجنى : فمن المحتمل أنهم يتوقعون أكثر مما سيجدونه، وأنهم سيصابون بخيبة أمل

كانت المشاهد الاولى تمهيدية ، بطيئة ، جادة ، سببت لى مزيدا من التوتر والقلق المرير • أم تهجر طفلها وتتركه فى سيارة ، فيأتى اللصوص ويسرقون السيارة بعد أن يضعوه بجوار صندوق قمامة • ثم ظهرت أنا •• الصعلوك فاذا بالضحك يتعالى ، ويتزايد • لقد ظهـــــرت النكتة أمامهم ! ومنذ تلك اللحظة لم يعد ممكنـــا أن أخطىء • عثرت على الطفل • وتبنيته • وضحكوا وأنا أصنع له سريرا معلقا من شوال قديم • وهتفوا وأنا أرضعه من براد شاى يحمل بوزه حلمة من الجلد • وصرخوا وأنا أثقب دائرة فى الكرسى الخيزران وأضعه فوق القصرية • والحقيقة أنهم لم يكفوا عن الضحك بطريقة هســـتيرية طوال الفيلم

والان وقد تم العرض التجريبى للفيلم ، شـــعرنا أن مهمة المونتـــاج قد انتهت • فحزمنا أمتعتنـــا وغادرنـــا « سولت ليك » متجهين شرقا

وفى فندق « ريتز » بنيويورك ، وجدت نفسى مضطرا الى التزام غرفتى بسبب المحضرين الذين أوفدتهم شركة « فرست ناشونال » لاعلانى بالحجز على الفيلم باسم قضية طلاق ميلوربد . وظل هؤلاء المحضرون ثلاثة أيام يفرضون رقابة يقظة حول ردهة الفندق ، حتى ضقت ذرعا . فلما دعانى فرانك هاريس الى العشاء فى بيته لم أستطع أن أقاوم الاغراء

وفى تلك الليلة اخترقت ردهة الفندق امرأة محجبة ، واستقلت سيارة تاكسى من أمام الباب . وكانت هذه المرأة أنا ! اذ اقترضت ثياب شقيقة زوجتى ولبستها فوق البدلة ، ثم خلعتها داخل التاكسى قبل أن أصل الى بيت فرانك

فى ذلك المساء عزمت على أن أقضى ليلتى فى فندق آخر ، لاحتمال أن يكون المحضرون ما زالوا يحاصرون المكان الى هذه الساعة

ولكن جميع الفنادق فى نيويورك كانت مشغولة . وبعد بحث دام أكثر من ساعة التفت لى سائق التاكسى ، وكان رجلا خشن المظهر فى الاربعين من عمره ، وقال :

ـ اسمع .. انك لن تجد لنفسك مكانا فى أى فندق فى هذه الساعة .. وخير لك أن تأتى معى الى بيتى ،وتنام حتى الصباح

فتوجست شرا فى البداية . ولكن عندما جاء ذكر زوجته وأولاده أحسست أن كل شيء سيكون على مايرام. فضلا عن أننى سأكون فى مأمن من المحضرين

فقلت :

ـ هذا كرم كبير منك

ثم عرفته بنفسى

فدهش الرجل . وضحك قائلا :
ـ سيطير صواب زوجتي !

ووصلنا الى منطقة مزدحمة في برونكس ، حيث البيوت في صفوف متوازية مبنية بالطوب الاحمر . ودخلنا واحدا من هذه البيوت ، أثاثه قليل ، ولكنه نظيف نظافة مطلقة . وقادني الرجل الى غرفة خلفية بها سرير كبير . وفي السرير كان ابنه البالغ من العمر اثنى عشر عاما يستلقي غارقا الى أذنيه في النوم . واذا بالرجل يقول :
ـ انتظر !

ثم يرفع الغلام ويقذف به من أعلى حافه السرير ، والغلام نائم كما هو لا يتململ . ثم التفت الى قائلا :
ـ أدخل أنت ! ..

وأوشكت أن أعيد النظر في الامر . ولكن كرم الرجل كان يلمس القلب الى حد لا يسمح للانسان بأن يرفضه
وبعد أن أعطاني قميصا نظيفا ، تسللت الى السرير في حذر خشية أن أوقظ الغلام ..

ولم تغفل عيناي لحظة واحدة . وعندما استيقظ الغلام أخيرا ، وارتدى ثيابه ، رأيته من خلال جفوني نصف المغلقة يلقى على نظرة عابرة ثم يغادر الحجرة دون أن يبدى أي اهتمام

ولكنه عاد بعد دقائق ومعه فتاة في الثامنة ، يبدو بوضوح أنها أخته ، وتسللا الى الحجرة . ورأيتهما ـ وأنا ما زلت متظاهرا بالنوم ـ يحملقان في وجهي بدهشة وعيون مفتوحة . ثم وضعت الفتاة يدها على فمها لتحبس ضحكة مفاجئة ، وغادر كلاهما الحجرة

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى بدأت همهمات تتصاعد في الممر . ثم سمعت صوت السائق يفتح الباب

بحذر ، ويهمس ليرى ما اذا كنت قد استيقظت فأكدت له ذلك ...

فقال :

ـ الحمام جاهز من أجلك . انه فى اخر الحوش

وقدم لى روبا ، وشبشبا . وفوطه ، وقال :

ـ ماذا تحب في الافطار ؟

قلت كمن يعتذر :

ـ أى شيء

ـ أطلب ما تشاء . ما رأيك فى لحم وبيض ، وخبز وقهوة ؟

ـ رائع !

وكان توقيتهم مضبوطا تماما . فبمجرد أن فرغت من ارتداء ثيابي دخلت زوجة الرجل الى الغرفة الامامية بافطار ساخن

ولم يكن فى الحجرة من الاثاث غير مائدة فى الوسط، ومقعد ذى مسندين ، وكنبة . وعلى الحائط وراء الكنبة، وفوق رف المدفأة ، كان يتناثر عدد من الصور العائلية فى براويز

وبينما أنا أتناول افطارى كان فى استطاعتى أنأسمع صوت زحام طاحن من الاطفال والكبار يتجمع خارج البيت ..

وابتسمت زوجة الرجل قائلة وهى تدخل القهوة :

ـ لقد بدأوا يعرفون أنك هنا

ثم دخل سائق التاكسى وقال وهو فى حالة شديدة من الانفعال :

ـ اسمع . فى الخارج الان زحام ضخم ، ويزداد تضخما . فاذا سمحت لهؤلاء الاولاد بالقاء نظرة عليك

فانهم سينصرفون . والا فالصحافة قد تعلم بالأمر ، وتقع أنت في المصيدة
فأجبت :
ــ دعهم يدخلون بكل سرور
وهكذا دخل الاطفال تتصاعد ضحكاتهم . وداروا في طابور حول المائدة وانا اشرب قهوتي .. بينما السائق في الخارج يقول :
ــ بهدوء .. بهدوء .. قفوا صفا .. وادخلوا اثنين اثنين
ودخلت امرأة شابة ، يرتسم على وجهها القلق والجد، ونظرت الى وجهي كأنها تبحث عن شيء ، ثم انفجرت باكية :
ــ لا .. انه ليس هو .. كنت اظنه هو ..
ومضت تنشج ..
وكان احدهم فيما يبدو قد قال لها : « من تظنين في الداخل ؟ انك لن تصدقي نفسك » .. ثم قادوها الى مكاني وهي تتوقع أن ترى شقيقها الذي كان قد فقد في الحرب ..
وأخيرا عزمت على العودة الى فندق « ريتز » بصرف النظر عما ينتظرني من اعلانات قانونية .. ولكنني عندما ذهبت لم اجد احدا من المحضرين . بل وجدت في انتظاري برقية من كاليفورنيا ، يخبرني فيها المحامي بأن كل شيء قد تمت تسويته ، وأن ميلوريد قد قدمت طلب الطلاق
وفي الصباح التالي جاء لزيارتي سائق التاكسي وزوجته في كامل ثيابهما . وقال السائق ان رجال الصحافة يضغطون عليه لكي يكتب لصحف الاحد قصة اقامتي في منزله . ثم قال بحزم :

ـ ولكنني لن ادلي نهم بحـــرف الا اذا حصلت على موافقتك ..

فقلت له :

ـ لا سردد

***

والآن جاء السادة فى شركة فيرست ناشونال يحملون بالتواء قبعاتهم فى ايديهم . وقال مستر جوردون ، أحد نواب المدير ، وصاحب عدد كبير من دور العرض فى الولايات الشرقية :

ـ انك تطلب مليونا ونصف مليون من الدولارات بينما نحن لم نر الفيلم بعد

فاعترفت بأن لهم فى ذلك بعض الحق . واعددنا عرضا خاصا للفيلم

كانت ليله كئيبة ، توافد فيها على القاعة خمســـة وعشرون من عارضي فيرست ناشونال كأنهم ذاهبون الى تحقيق يجريه البوليس . وكانوا يؤلفون جماعة فظة ، متشككة ، غير عاطفة

وبدأ عرض الفيلم بعنوان افتتاحى يقول : « فيلم يحمل بسمة ، وربما أيضا دمعة » . فقال مستر جوردون من باب التفضل واظهار سعة الافقَ :

ـ لا بأس !

وكنت منذ العرض الذى جرى فى مـــدينة « سولت ليك » قد كسبت شيئا من الثقة بالنفس ، ولكن هذه الثقة كلها تبددت قبل أن يصل العرض الى منتصف الفيلم فالمشاهد التى انتزعت الصرخات العالية فى العرض السابق لم تكن لتنتزع الان أكثر من ضحكة باهتة أو ضحكتين . وعندما انتهى العرض واضيئت الانوار ســـاد الصمت

فترة · ثم بدأوا يتمطون ويدعكون عيونهم ويتكلمون فى مسائل اخرى :

ــ أين تتناول عشاءك الليلة يا هارى ؟

ــ سآخذ زوجتى الى « بلازا » وبعــد ذلك نذهب الى استعراض زيمفيلد

ــ انه استعراض طيب كما سمعت

ــ أتحب ان تأتى معنا ؟

ــ كلا · اننى سأغادر نيويورك الليلة · كى احضر حفل تخرج ابنى

وظلت اعصابى طوال هذه الثرثرة على حافة السكين ، الى ان بادرتهم أخيرا :

ــ حسنا · ما حكمكم يا سادة ؟

فتململ البعض فى حرج ، ونظر البعض الاخـــر الى الارض · أما المستر جوردون ، الذى كان واضحا انــه الناطق بلسانهم ، فراح يتمشى ذاهبا عائدا · كان رجلا بدينا ، ثقيل الوزن ، له وجه مستدير يشبه وجه البومة ونظارة سميكة · وقال :

ــ شارلى · ان على أولا أن أجتمع بشركائى ··

فقاطعته بسرعة :

ــ نعم اعلم ذلك ، ولكن ما رأيك فى الفيلم ؟

فتردد ·· ثم ابتسم قائلا :

ــ شارلى · نحن هنا لنشتريه ، لا لنقول رأينا فيه !

وأثار هذا التعليق ضحكة أو ضحكتين ساخرتين ·· فقلت :

ــ اننى لن اطالبكم بثمن اضافى للاعجاب به

فتردد مرة اخرى وهو يقول :

ــ بصراحة · كنت أتوقع شيئا آخر

ـ ماذا كنت تتوقع ؟
فمضى يقول ببطء :
ـ في الواقع يا شارلى انه في مقابل مليون ونصف ٠ حسنا ، ليس في الفيلم ما يساوى ذلك
ـ ماذا تريد ؟ ان ينهار كوبرى لندن مثلا ؟
ـ لا لا ٠٠ ولكن فى مقابل مليون ونصف ٠٠
وتسلخ صوته ، حتى صار حادا كأصوات النساء
فنفد صبرى ، وقلت :
ـ حسنا ايها الســـادة ٠ هـــذا هو الثمن ٠ وفى استطاعتكم ان تقبلوا او ترفضوا
واقبل نحوى عندئذ « ج ٠ د ٠ وليامز » رئيس مجلس الادارة ، وشرع يتلطف معى :
ـ شارلى ٠ انه فى رأيى فيلم رائع ٠ فيلم انسانى ٠ مختلف ٠٠ « لم تعجبنى كلمة مختلف هذه » كل ما عليك هو أن تصبر قليلا ، وسنسوى الامر
قلت بلهجة قاطعة :
ـ ليس هناك ما يحتاج الى تسوية ٠ سأمهلكم أسبوعا واحدا تحزمون فيه أمركم
ذلك اننى ـ بعد الطريقة التى عاملونى بها ـ لم أعد أشعر نحوهم بأى احترام
على أنهم فى النهاية حزموا أمرهم بسرعة
وعقد المحامى اتفاقا معهم يقضى بحصولى على خمســين فى المائة من الارباح بعد أن يستردوا المليون والنصــف الذى دفعوه ٠ وأن يكون ذلك على أساس أنهم استأجروا الفيلم لمدة خمس سنوات ٠٠ وبعدها يعود الى حيـــازتى كما هو الحال بالنسبة لبقية أفلامى

وهكذا تحررت من عبء مشاكلى العائلية والمالية معا ، وبدأت أشعر اننى أطير فى الهواء ولقد عشت حيـــــــاة المعتزل طوال اسابيع قضيتها مختبئا ، لا يقع بصرى الا على الجدران الاربعة لحجرة نومى فى الفندق .. والان بدأ الاصدقاء ـ بعد أن قراوا فى الصحف عن مغامرتى مع سائق التاكسى ـ يتصلون بى ، وبدأت تنبسط امامى من جديد حياة بلا عوائق . حياة حرة ، رائعة ..

الفصل الرابع

لعنة الملك

* أمى .. والسيد المسيح !
* البحث عن أفكار فى المخزن ..
* السباكون بعد الطبقة العاطلة
* الى انجلترا مرة أخرى

كنت احب ان ابقى فترة اطول فى نيويورك . ولكن كان هناك عمل ينتظرنى فى كاليفورنيا . اذ كنت أنوى أن أفرغ بسرعة من عقدى مع فيرست ناشونال حتى أبدأ العمل مع « الفنانين المتحدين »

وكانت العودة الى كاليفورنيا شيئا يثبط الهمة بعد حياة التحرر والخفة والوقت الممتع الذى قضيته فى نيويورك . كما ان مشكلة اتمام اربعة افلام ذات لغتين من أجل فيرست ناشونال كانت تحلق فوق رأسى كمهمة لا خلاص منها

وقضيت عدة ايام اتجول فى الاستديو امارس عادة التفكير . فالتفكير كعزف الكمان أو البيانو . وأنا كنت قد نسيت هذه العادة . واوغلت فى حياة نيويورك المتجددة ، ولم أعد استطيع ان احل نفسى من تأثيرها . ولهذا قررت ـ مع صديقى الانجليزى دكتور سيسيل رينولدز ـ أن نذهب الى كاتالينا فى رحلة لصيد السمك

وكان الدكتور رينولدز عبقريا فى جراحة المخ ، حقق فيها نتائج معجزة . وقد عرفت الكثير من تواريخ الحالات التى عالجها . ومنها حالة طفلة مصابة بورم فى المخ كانت تصاب كل يوم بعشرين نوبة ، وتنحدر نحو البلاهة . ولكنها بعد الجراحة التى أجراها سيسيل شفيت تماما ، وكبرت لتصبح فتاة جامعية لامعة

ولكن سيسيل كانت به « لحسة » .. فقد كان مجنونا بالتمثيل . وهذا الولع هو الذى اجتذبه نحوى كصديق .
وكان يقول لى : « أن المسرح يغذى الروح .. »
وكثيرا ما كنت أجادله قائلا : ان عمله فى الطب جدير بأن يكون غذاء روحيا كافيا ، فأى شىء اكثر اثارة من تحويل شخص ابله الى جامعى لامع ؟ ولكنه كان يقول :
ـ ليس فى ذلك الا مجرد العلم بأماكن الالياف العصبية . اما التمثيل فتجربة نفسية توسع آفاق الروح ..
وسألته ذات مرة لماذا احترف جراحة المخ .. فأجاب :
ـ لما فيها من اثارة مسرحية !
وكثيرا ما كان يقوم بأدوار ثانوية فى مسرح الهواة فى باسادينا . كما انه قام ايضا بدور القس الذى يزور السجن فى فيلمى « العصر الحديث »
وبعد عودتى من رحلة الصيد جاءت الانباء بأن صحة أمى تحسنت ، وأننا نستطيع الآن وقد انتهت الحرب أن نحضرها فى سلام الى كاليفورنيا .. فارسلت توم الى انجلترا ليرافقها اثناء الرحلة فى الباخرة . وتضمنتها قائمة المسافرين تحت اسم مستعار
وكانت تصرفات امى طبيعية تماما طوال الرحلة . فهى تتناول عشاءها كل مساء فى قاعة الطعام الرئيسية ، وتشارك اثناء النهار فى الالعاب الرياضية التى تجرى على ظهر الباخرة
وعندما وصلت الى نيويورك كانت لطيفة جدا ، ومنزنة . الى ان حياها رئيس ادارة الهجرة قائلا :
ـ اهلا اهلا مسز شابلن ! هذه حقا فرصة سعيدة ! اذن فأنت والدة « شابلننا » الشهير
فاذا بها تقول فى لهجة بالغة العذوبة :

ــ نعم • وانت السيد المسيح
فتحول وجه الرجل الى شيء يستحق الدراسة ••وبدا عليه التردد ، ونظر لحظة الى توم ، ثم قال بأدب :
ــ اتسمحين بالمجيء معى لحظة يا مسز شابلن ؟
وادرك توم انه ستكون هناك بعض المتاعب . على ان ادارة الهجرة ــ بعد الكثير من البرقيـــات ــ سمحت بدخولها على اساس اقامة تتجدد كل سنة وبشرط الاتكون عالة على الدولة
ولم أكن قد رايت أمى منذ آخر مرة زرت فيها انجلترا . اى منذ عشرة اعوام .. ولهذا فاننى صدمت قليلا عندما فوجئت بسيدة نحيلة عجوز تهبط من القطار فى باسادينا• أما هى فعرفت سيدنى وعرفتنى على الفـــور ، وكانت طبيعية تماما
ورتبنا امر اقامتها بجوارنا فى بيت صيفى على ساحل البحر ، ومعها زوجان يديران أمور البيت ، وممرضـــة مدربة لرعايتها • واعتدنا أنا وسيدنى أن نزورها بين وقت وآخر ، ونقضى الامسيات معها فى العاب التسلية . امـــا اثناء النهار فكانت تحب ان تقـــــوم برحلات خلوية فى سيارتها • وكانت تجىء الى الاستديو أحيانا ، فأعــرض لها أفلامى
وأخيرا تم افتتاح فيلم الطفل فى نيويورك • فكان نجاحا هائلا . واثار جاكي كوجان ــ كما تنبأت عندما قابلت والده أول مرة ــ ضجة مثيرة • وكان من نتائج نجـــاحه فى « الطفل » انه جمع فى حياته العملية اكثر من اربعة ملايين دولار • ولم يكن يمضى يوم دون أن نتلقى قصاصات مـــن التعليقات النقدية الرائعة • لقد اعتبر فيلم «الطفل» من الكلاسيكيات •• ولكننى لم أجد مطلقا الشجاعة للذهاب الى نيويورك ومشاهدته ••وفضلت أن أبقى فى كاليفورنيا

واسمع عنه ..

على أن النجاح الكبير لفيلم الطفل لم يكن نهاية متاعبي: فمازال على ان اقدم أربعة أفلام الى فيرست ناشونال . وهكذا مضيت فى يأس صامت اتجول فى مخزن المهمات علنى أعثر على شيء يلهمنى فكرة : بقايا مناظر قديمة ؛ باب سجن ، بيانو ، جذر شجرة . واذا بعينى تقع فجأة على مجموعة من عصى الجولف القديمة .. عـــز الطـلب ! الصعلوك يلعب الجولف ــ « الطبقة العاطلة »

وكانت القصة بسيطة : الصعلوك يقحم نفسه فى كل متع الاثرياء .. يسافر الى الجنوب من أجل الدفء،ولكن يسافر تحت عربات القطار لا فى داخلها ، ويلعب الجولف بكرات يعثر عليها فى الملعب ،وفى احدى الحفلات التنكرية يختلط بالاثرياء « متنكرا » فى ثياب صعلوك ويقع فى حب فتاة جميلة . وبعد مغامرة غرامية فاشلة يهـــــرب من الضيوف الغاضبين ، ويمضى مرة اخرى فى طريقه

ووقع لى اثناء تصوير احد المناظر حادث طفيف بسبب وابور اللحام ، اذ اخترقت حرارته بنطـــلونى المغطى بالاسبستوس العازل . واضطررنا أن نضيف طبقة أخرى من الاسبستوس . ولكن كارل روبنســـون رأى فى ذلك فرصة للدعاية . وأبلغ الصـــحافة بالقصة . واذا بى افاجأ فى ذلك المساء بعناوين ضخمة تعلن اننى أصـــبت بحروق بالغة فى الوجه واليدين والجسم . وانهالت على الاستديو مئات من الرســـائل والبرقيـــات والمكالمات التليفونية . ونتيجة لذلك وجدت فى بريدى القادم مـــن انجلترا رسالة من هـ . ج .ويلز ، يقول فيها ان اطلاعه على ما حدث لى اصابه بصدمة بالغة . ثم استطرد يقول الى أى حد هو معجب بعملى ، والى أى حد سيكون أمـــرا مؤسفا أن أعجز عن الاستمرار . فأبرقت اليه على الفـــور

اخبره بحقيقة ما حدث

وبعد الانتهاء من فيلم « الطبقة العاطلة »كانت نيتي أن أبدأ فيلما اخر من بكرتين • ومضيت أدير في ذهني فكرة فيلم من طراز البرلسك عن مهنة السباكة المريحة • يبدأ المنظر الاول منه بوصول السباكين في سيارة ليموزين يقودها سائق خاص ، واهبط منها أنا وماك سوين . فنستقبلنا بالترحيب الحار سيدة البيت الجميلة ـ اونا بورفيانس ـ وتقدم لنا الطعام والشراب • وبعد ذلك تقودنا الى الحمام حيث أبدأ العمل على الفور مستخدما سماعة الاطباء : واضعا اياها على الارض كي انصت الى المواسير : ثم أدق عليها بأصابعي كما يفعل الطبيب بالمريض

ولكنني لم استطع ان اذهب الى ابعد من ذلك . اذ لم يعد في استطاعتي ان اركز ذهني !

ووجدت انني مرهق الى حد لم أكن اتوقعه . فضلا عن انني طوال الشهرين السابقين كنت أعاني من رغبة ملحة في زيارة لندن . وهي زيارة طالما حلمت بها ، وجاء خطاب هـ • ج • ويلز كدافع جديد اليها . ثم انني ـ بعد عشر سنوات ـ تلقيت رسالة من هيتي كيلي . وكانت تقول فيها : « هل تذكر فتاة صغيرة حمقاء ... الخ »

كانت الآن متزوجة، وتقيم في ميدان بورتمان •وكانت تسأل هل يمكنني اذا ذهبت الى لندن ذات يوم أن أزورها

وما كان الخطاب يمتاز بحرارة معينة ،أويثير في النفس كثيرا أو قليلا من الذكريات العاطفية •• فضلا عن أنني خلال عشرة أعوام كنت قد دخلت وخرجت من تجارب غرامية متعددة • ومع ذلك ، فسأزورها

وهكذا طلبت من توم ان يحزم امتعتي ، ومن ريفز ان يغلق الاستديو ويمنح الفرقة أجازة •• فقد انتويت أن اذهب الى انجلترا

الفصل الخامس

غزو إنجلترا

* دخلت انجلترا كأنى قيصر

* ماذا كتب عنى سومرست موم .. ؟

* الفقر ليس جذابا وليس بانيا للشخصية

* طرقت باب برنارد شو ، ثم وليت هاربا

استيقظت متعبا فى يوم الرحيل فى الثامنة والنصف صباحا . ولكننى اخذت حماما ازال عنى كل التعب ، وعادت تنبض فى نفسى اللهفة الى الرحيل ٠٠ الى انجلترا ٠٠ وكان صـــديقى ادوارد فوجوك ـ مـؤلف « قسمتى » ومسرحيات اخرى ـ سيسافر معى على ظهر نفس الباخرة : أوليمبيك

وصعد الى الباخرة زحام من رجال الصـــحافة ، فخشيت أن يكون فى نيتهم مصاحبتنا طوال الرحلة ٠ وقد صاحبنا بالفعل اثنان منهم .. اما الاخرون فغـــادروا الباخرة فى زورق الكشاف

وانفردت بنفسى اخيرا فى حجرتى المزدحمة بالزهور وسلال الفاكهة المهداة من اصدقائى . لقد مضت عشر سنوات منذ تركت انجلترا ، على ظهر نفس الباخرة ، مع فرقة كارنو . ويومها سافرنا فى الدرجة الثانية . واذكر ان مضيف الباخرة اخذنا معه فى جولة سريعة فى انحاء الدرجة الاولى ، لنرى كيف يعيش النصف الاخـــر من الركاب . وانه حدثنا طويلا عن ترف المقصورات الخاصة واسعارها التى تدفع الى اليأس ، والآن ها انذا عائد الى انجلترا ! لقد عرفت لندن وانا شاب نكرة من لامبث ؛ والآن أعود اليها رجلا شهيرا ، ثريا ، كأنما لأراها للمرة الأولى ٠٠

وكنت اتصور انى سأتمكن من الاسترخاء . ولكن لوحة الاستعلامات على ظهر الباخرة بدأت تزخر بنشرات عن وصولى المتوقع الى لنـــدن . وبينما نحن فى منتصف المحيط الاطلنطى داهمتنا عاصفة من البرقيات تحمـــل آلافا من الدعـــوات .. لقد بدأت الهســـتيريا ! ..
وعلى لوحة السفينة بدات تظهر مقتطفات من مقـــالات (المورننج تلجراف) و (اليونايتد نيوز) .. تقول واحدة منها :

(شابلن يعود عودة الغزاة ! الموكب من ساوثهامبتون الى لندن سيكون كمواكب النصر الرومانية)

وتقول اخرى :

النشرات اليومية عن خط سير السفينة ، وأخبـــار شارلى اثناء الرحلة ، قد فاقتها فى الاهمية البرقيات التى ترد كل ساعة من على ظهر السفينة . والطبعات الخاصة التى تصدرها الصحف بهذه البرقيات تملأ الشـــوارع : تنبىء الناس بأخبار هـــذا الرجل الضئيل العظيم ذى القدمين المتورمتين) ..

وتقول ثالثة :

(حجز الضباب الباخرة اولمبك هـذه الليلة خارج ساوثهامبتون . وفى المدينة ينتظر جيش هائل من المفتونين المعجبين لتحية الممثل القادم . والبوليس مشغول باتخاذ الترتيبات اللازمة للتحكم فى الزحام على أرصفة الميناء ، وأثناء الاحتفال الرسمى الذى سيقوم فيه العمدة باستقبال شارلى .. أما الصحف ، فأنها تكتب عن افضل المواقـــع التى يمكن فيها للناس ان يروا شارلى ، تماما كما فعلت فى الايام التى سبقت موكب النصر)

لم اكن فى الواقع مهيأ لمثل هذا النوع من الاستقبال .

صحيح انه رائع وعجيب ، ولكنني كنت افضل لو اخرت زيارتي الى أن أشعر بأنني كفء له • فقد كان ما أحن اليه هو رؤية الاماكن القديمة المألوفة وأن اتجول بهدوء حول لندن ، وان ارى كننجتون وبركستون ، واتطلع الى نافذة (٣ شارع برندالي تراس) واطل فى مغلق الخشب الذى عملت فيه مساعدا لقاطعي الاخشاب • وأن أرفع رأسي الى نافذة الدور الثانى عند (٢٨٧ شارع كننجتون) حيث كنت اعيش مع لويز ووالدى . فهذا الحنين كان قد تحول عندى الى شيء كالمرض

واخيرا وصلنا الى شربورج !

وهبط كثيرون من السفينة ، وصعد اليها كثيرون — مصورون وصحفيون — ما هي رسالتي الى انجلترا ؟ ماهي رسالتي الى فرنسا ؟ وهل سأزور ايرلندا ؟ ما هو رأيي في المسألة الايرلندية ؟

ثم غادرنا شربورج واتخذنا طريقنا الى انجلترا ••ولكن ببطء متزايد . وصار التفكير فى النوم امرا مستحيلا. وبلغت الساعة الواحدة صباحا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، وأنا ما أزال مفتوح العينين • وأخيرا توقفت محركات السفينة ، ثم دارت فى اتجاه عكسى ، ثم توقفت تماما • وبدات اسمع وقع اقدام تجرى ذاهبة عائدة فى الممر خارج مقصورتى • فنظرت من ثقب الباب وكلى أعصاب مشدودة ، يقظى • ولكن الظلام كان دامسا ، فلم أستطع أن ارى شيئا . ولكننى على اية حال سمعت أصواتا تتحدث باللغة الانجليزية

ثم ظهر ضوء الفجر ، فغبت فى نوم عميق من اثر الاجهاد ، ولكننى لم أنم أكثر من ساعتين • وما كاد مضيف السفينة يجيئنى بالقهوة وصحف الصباح حتى

استيقظت متحفزا كالصقر
كان احد العناوين يقول :
(عودة الممثل تفوق يوم الهدنة)
ويقول آخر :
(زيارة شابلن حديث لندن)
ويقول ثالث :
(ذهاب شابلن الى لندن سيلقى ترحيبا هائلا مؤكدا)
ويقول الرابع ، بحروف ضخمة :
(هذا هو ابننا ..)
وطبيعى انه كانت هناك بعض التعليقات الانتقادية ، منها :
نداء من اجل سلامة العقل !
(بحق السماء ، دعونا نستعيد صوابنا . اننى لا انازع فى ان المستر شابلن رجل رفيع القدر ، وليس يعنينى كثيرا أن أبحث لماذا يشعر بالحنين الجارف الى وطنه الا فى هذه الايام ، ولا لماذا لم يكن لهذا أثر فى السنوات السوداء التى كان فيها الوطن الانجليزى مهددا بالخطر من جانب الالمان . فقد يكون صحيحا ما قيل من آن قيام شارلى شابلن بأداء عدد من الحركات الهزلية أمام الكاميرات كان أنفع من أى نشاط يقوم به وراء المدفع ..) الخ ..

***

وعلى رصيف ميناء ساوثهامبتون ، حيانى أولا عمدة المدينة . ثم زجوا بى فى القطار على عجل . وصرنا أخيرا فى الطريق الى لندن
وكان آرثر كيلى – شقيق هيتى – يجلس معى فى نفس المقصورة . وما زلت اذكر حتى الآن منظر الخلاء الاخضر وهو يعبر امامنا فى النافذة ونحن نحاول ان نتبادل

الحديث . وما زلت اذكر عنـــدما قلت له اننى تلقيت خطابا من اخته تدعونى الى العشاء فى بيتها فى ميـــدان بورتمان ، فاذا به ينظر الى نظرة غريبة ، ويبدو عليه الارتباك . ثم يقول :

ـ ان هيتى ماتت كما تعلم !

فصدمت ! وان كنت فى تلك اللحظة لم اســتطع ان استوعب المعنى الكامل لما ينطوى عليه هذا النبأ . فقد كانت الاحـــداث المتزاحمة كثـيرة . ولكننى برغم ذلك احسست كأنما سرقت منى تجربة رائعة . فهيتى كانت الوحيـــدة ـ من كل اشخاص الماضى ـ التى تمنيت ان أراها مرة أخرى فى هذه الظروف المذهلة

وبدأنا نقترب من ضواحى لندن ..

فنظرت من النافذة فى لهفة وانا احاول عبثا ان اتعرف على اى شارع ، ووراء لهفتى يكمن الخوف من ان تكون لندن قد تغيرت بعد الحرب

والان وقد بدأ انفعالى يحتدم . وخيل الى اننى لن أفور بشىء غير اللهفة . اللهفة الى ماذا ؟ لا ادرى . فعقلى قد اختلط تماما . ولم أعد قادرا على التفـكير فى أى شىء . كل ما كنت قادرا عليه هو ان انظر الى سطوح المنازل ، وأراها كأشياء جديدة ، ولكن حقيقتها غير موجودة . ولا شىء هنلك غير اللهفة . مجرد اللهفة !

وأخيرا بدأ يغلفنا ذلك الرنين الذى تمتاز به محطات السكك الحديدية . لقد دخلنا « ووترلو » وما كدت أخطو خارج القطـــار حتى رايت على نهاية الرصيف الجموع المتزاحمة وقد حجزت بعيدا ، وامامها صفوف من رجال البوليس . وكل شىء متـــوتر ، نابض . ومع اننى كنت عاجزا عن استيعاب أى شىء غير انفعالاتى ، فاننى شعرت

بهم وهم يجروننى عبر الرصيف كما لو كنت مقبوضـا على . وعندما اقتربت من الجموع المحجوزة وراء الحبال، بدا الوتر يتحول الى انفجار :

ــ هذا هو ! هذا هو !

ــ شارلى العزيز القديم !

وتطايرت الهتافات ، فى الوقت الذى شحنونى فيـه داخل سـيارة مغلقـة مع ابن عمى أوبرى والذى لم أره منذ خمسة عشر تاما . ولم يكن لدى من حضـور الذهن ما يجعلنى أعترض على اخفائى هـكذا عن الجموع التى انتظرتنى كل هذا الوقت الطويل

وطلبت من اوبرى ان يتأكد من اننا سنمر فوق كوبرى وستمنستر . فلما تجاوزنا ووترلو ، ومضينا فى طريق يورك ، لاحظت أن المنازل القديمة قد ذهبت وحل محلها بناء ضـخم جديد : عمارة ل. سى. سى. ولكننا ما كدنا ننعطف بعد ناصية طريق يورك حتى أشرق علينا منظـر كوبرى وستمنستر ! نفس المنظر القديم ، ومبانى البرلمان رافعة راسـها كما كانت دائما .. وقورا ، ازلية . كان المنظر كما تركته بالضبط .. وجعلنى على حافة البكاء ..

واخترت لاقامتى فندق ريتز لانه كان فى ايام طفولتى قد بنى حديثا . وكنت قد مررت يوما امام مدخلـه ، والتقطت عينى بعض ما فى داخله من فخامة .. فظللت منذ ذلك الوقت اشعر برغبة شديدة فى ان ارى كيف تبـدو بقية أجزائه

وعلى باب الفندق كان ينتظر حشد هائل من الناس ، فالقيت فيهم كلمة قصيرة . ثم صـعدت الى غرفتى وفى صـدرى رغبة ملحة فى الانفراد بنفسى . ولكن الزحام الطاحن كان فى الخـارج ما يزال ، والهتافات لا تكف ،

فاضطررت أن أخرج الى الشرفة عدة مرات لأتقبل تحيات الناس كما يفعل الملوك . والواقع انه من الصعب ان يصف الانسان أحاسيسه فى مثل هذه الظروف

وكان جناحى مزدحما بالاصدقاء ، ولكن رغبتى الوحيدة كانت الهرب منهم . وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر، فقلت لهم انني سأنام قليلا ثم اراهم على العشاء

وما كادوا ينصرفون حتى غيرت ثيابى ، ونزلت فى مصعد الاثاث ، وتسللت الى الخارج من باب الخدم دون ان يلحظنى أحد . ثم اتخذت طريقى على الفور الى شارع جيرين ، حيث استأجرت سيارة تاكسى ، واخترقت طريقى عبر (هاى ماركيت) وميدان (الطرف الاغر) وشارع البرلمان وكوبرى وستمنستر .. ثم أخيرا ! شارع كننجتون ! ..

وهذا هو الشارع أمامى ! شىء لا يصدق ! نفس الشارع لم يتغير . وكنيسة المسيح فى نهاية شارع كوبرى وستمنستر ! ومحل « التانكارد » على ناصية شارع بروك

وأوقفت التاكسى على مسافة قريبة من « ٣ شارع بوفوال تيراس » . وسيطر على هدوء غريب وأنا أمشى فى اتجاه البيت . ثم توقفت لحظة أتمعن فى المنظر - ٣ شارع بوفوال تيراس ! ها هو أمامى ، كأنه جمجمة عتيقة . ورفعت رأسى الى النافذتين العلويتين . حيث كانت أمى تجلس ، مكدودة ، جائعة ، وعقلها يفلت منها . كانتا مغلقتين الآن ، لا تبوحان بشىء ، ولا يبدو أنهما تكترثان بالرجل الواقف طول هذه المدة يحملق فيهما ولكن صمتهما كان فى الواقع يعبر عما هو

أكثر من الكلمات

وجاء بعض الصبية أخيرا ، وأحاطوا بى ، فاضطررت أن أواصل السير • وسرت فى اتجـــاه العنبر الواقع خلف شارع كننجتون ، حيث عملت مساعدا لقاطعى الاخشاب• ولكن العنبر الآن كان قد بنى بالطوب الاحمر ••وقاطعو الاخشاب لم يعد لهم وجود

ثم واصلت طريقى الى ٢٨٧ شارع كننجتـون ، حيث أقمت أنا وسيدنى مع أبى ولويز وطفلها الصغير • ورفعت رأسى الى الدور الثانى أحـــدق فى نوافذ الغـــرفة التى ارتبطت فى ذهنى بتعاسة طفولتى • كم تبدو هذه النوافذ الآن بريئة ، هادئة ، خالية من المعنى

ثم عدت أسير نحو حديقة كننجتون العامة ، مارا فى طريقى بمكتب البريد الذى كان لى فيه دفتر توفير بمبلغ ســـتين جنيها : وهو كل ما تمكنت من ادخاره حتى عام ١٩٠٨ •• وما يزال باقيا حتى هذه اللحظة

وأخيرا هاهي الحديقة ! برغم السنين ما تزال تشيع فيهـــا الخضرة والاسى . ثم بوابة كننجتون ، اول مكان تواعدت مع هيتى على اللقاء عنده . وتمهلت لحظة أتأمل احدى عربات الترام وهى تقف . وصعد شخص الى العربة ولكن لم يهبط منها أحد

ثم واصلت الطريق الى شارع بركستون ، الى المبنى رقم ١٥ فى عمارات جلنشو .. حيث الشقة التى اتخذناهـــا أنا وسيدنى • ولكن انفعالاتى كانت قد استنفذت تماما ، ولم يتبق فى نفسى غير حب الاستطلاع

وفى طريق عودتى عرجت على نادى « هورنز » لاتنـــاول بعض الشراب • وكان فى أيامه يعتبر من النوادى الراقية ، بمراياه المتقنة ، وقاعته المخصصة للبلياردو ، والبـــار

المصنوع من خشب الماهوجنى · وكانت قاعته الرئيسية هى المكان الذى أقيمت فبه آخر حفلة لصـــالح والدى · اما الان فقد صار النادى متواضعا ، وان كان قد بقى على حاله ··

وعلى مقربة من النادى كان المكان الذى تلقيت فيـــه دراستى لمدة عامين : مدرسة المجلس البلدى بشـــارع كننجتون ··

وعندما ألقيت نظرة على فنائها وجدت المساحةالمرصوفة بالاسفلت فيها قد انكمشت نتيجة اقامة مبان جديدة

وطوال هذه الجولة فى انحاء كننجتون ، كان كل ماحدث لى فى الماضى يبدو كأنهحلم ، وكل ماحـدث لى فى امريكا يبدو كأنه وحده الحقيقة . ومع ذلك كان ينتابنى طوال الوقت احساس غير مريح بأن هذه الشوارع الفقـــيرة الرقيقة قد تـــكون لديها القدرة حتى الان على أن تطبق على بيأسها كما تطبق الرمال الناعمة ··

***

كتب الكثير من الكلام الذى لا معنى له عن ميلى الى الوحدة ، والحزن

ولعلنى لم أشعر أبدا بالحاجة الى أصدقاء كثيرين ·· فالشهرة تجذبهم دونتمييز · ولكننى رجل أحب الاصدقاء كما أحب الموسيقى ، أىعندما يكون مزاجى مهيأ · فمد يد المساعدة الى صديق محتاج اليها مســألة سهلة ، ولكن منحه وقتـــك ليس ممكنا فى بعض الظروف . وقد كان الاصدقاء والمعارف ـ وانا فى قمة شهرتى ـ يتزاحمون على بطريقة مبالغ فيها . ولما كنت رجـــلا انطوائيـــا وانبساطيا فى وقت واحد ، فقد كنت حين تغلبنى الصفة الاولى اهرب منهم جميعا . ولعل هذا هو مصـــدر تلك

المقالات التى كتبت عن اننى رجل مترفع ، ميال للعزلة ، وغير صالح للصداقة الحقيقية • وهو كلام فارغ • فان لى صديقا او صديقين حميمين يضيئان افق حياتى، وعندما أكون معهما فاننى أقضى فى العادة وقتا ممتعا

على ان شخصيتى كثيرا ما صورت مضيئة أو كئيبة حسب وجهة نظر الكاتب . وها هو سومرست موم مثلا .. كتب يقول :

« شارلى شابلن .. فكاهته بسيطة ، حلوة ، غير مفتعلة . ومع ذلك يراودك الاحساس طول الوقت بأن وراءها حزنا عميقا . انه رجل صاحب حالات ، وليس ضروريا ان تسمعه يقول : « يا سارتر ، لقد داهمتنى نوبة من التشاؤم ليلة امس حتى كدت لا ادرى ماذا افعل بنفسى » .. لكى تعرف ان فكاهته مغلفة بالحزن . فهو لا يعطيك الانطباع بأنه رجل سعيد . واعتقد انه يعانى حنينا الى العشش . فالثروة والشهرة اللتان يتمتع بهما تحبسانه فى اطار حياة لا يجد فيها غير القيود .. وفى ظنى أنه يحن الى الحرية التى كان يتمتع بها أيام الشباب والكفاح ، بكل ما كان فى تلك الايام من فقر وحرمان ،وهو حنين يعلم ان اشباعه لن يتحقق أبدا • فمناظر الحى الجنوبى فى لندن تمثل عنده البهجة ، والمرح ، والانطلاق فى المغامرة . وفى استطاعتى ان اتصوره يدخل بيته الحالى فيتساءل فى دهشة ماذا جاء يفعل فى بيت رجل غريب • اذ يخيل الى ان البيت الوحيد الذى يمكن ان يعتبره بيته هو غرفة خلفية فى شارع كننجتون . وقد حدث ذات ليلة ان خرجنا نتمشى فى لوس انجلس ، فقادتنا خطواتنا الى افقر حى فى المدينة . حيث المساكن وضيعة كالحة ، والدكاكين الخربة لاتبيع الا تلك البضائع التى يشتريها

الفقراء يوما بيوم ·· فاذا بوجهه يضىء ، وصـوته ينبض بحرارة وهو يهتف : اسمع ! هذه هى الحياة حقا ، وكل ما عداها زائف ·· أليس كذلك ؟ »

(ملاحظة ـ هـذه الحكاية ليست صحيحة . فالذى حدث هو اننا كنا بالصـــدفة فى الحى المكسيكى ، وكان تعليقى : ان فى هذا المكان من الحيوية اكثر مما فى تلال بيفرلى ـ حى نجوم السينما) .

ان هذا الاتجاه نحو تصوير الفقر فى صـــورة جذابة للآخرين أمر يبعث على الضيق ·· فلا أنا عرفت حتى الآن رجلا فقيرا يحن الى الفقر ، أو يجد فيه حريته .. ولا المستر موم يستطيع أن يقنع اى فقير بأن الشهرة والثراء الفاحش يعنيان القيود . اننى لا أجد قيدا على الاطـلاق فى الثروة ـ بالعكس أجد فيها كثيرا من الحرية · ولست أظن أن موم برضى بأن بنسب مثل هذه الافكار الزائفـة الى أية شخصية فى رواياته .. ولو فى اقلها شـــأنا . فالقول بأن « مناظر شوارع الحى الجنوبى فى لندن تمثل البهجة والمرح والانطلاق فى المغـــامرة » قول يحمل فى الواقع طابعا من الميوعة والخفة يليق بمارى انطوانيت .

اننى لا ارى الفقر جذابا ، ولا بانيا للشخصية . فالفقر لم يعلمنى شيئا غير تشويه القيم والمقاييس ، والتقدير المبالغ فيه لفضائل ومحاسن الاغنياء والذين يطلق عليهم صف الطبقات الارقى

أما الثروة والشهرة فانهما على العكس قد علمـــانى أن أرى العالم رؤية صحيحة ، وأن أكتشف ··حين أقترب من البارزين من الرجال ·· أن لهم نقائصهم الخاصـــة مثلنا جميعا . كما علمتنى الثروة والشهرة ايضـــا أن أنظر الى شارات العائلات العريقة المرســومة على السيوف والعصى وسياط الركوب باعتبـارها نوعا من

الادعاء ، وأن أدرك زيف اللهجة الجامعية كمقياس لذكاء الانسان وجدارته ، ومدى الاتر المدمر لهذه الخـــرافة المحفورة على عقول الطبقة الوســطى الانجليزية . وان أعرف أن الثقــافة ليست بالضرورة نتيجة للتعــليم أو معرفة الكلاسيكيات

وبالرغم من افتراضات موم ، فأنا ــ ككل انســــان آخر ــ لست الا أنا : فرد قائم بذاته ، مختلف عن غيره ، له حوافز ونوازع ممتدة اليه عبر خيط وراثى قــديم ، وتاريخ شخصى من الاحلام والرغبات والتجارب الخاصة .. أمثل أنا حصيلتها الكلية

وجدت أننى ــ منذ وصولى الى لندن ــ اعيش بصفة مستمرة فى صحبة أصدقاء هوليوود وأحسست بالرغبة فى التغيير فى تجارب جديدة ، ووجوه جديدة

ولم أكن مرتبطا الا بموعد واحد ، مع هـ ٠ ج ٠ ويلز٠ وبعده أصبح حرا ٠٠ وقال لى أرى نوبلوك :

ــ لقد رتبت لك سهرة عشاء فى نادى جاريك ٠٠

وفى هذه السهرة التى انفضت سريعا همس نوبلوك فى أذنى بأن السير جيمس بارى الكاتب المسرحى الشهير) يحب أن نزوره فى شقته لتناول الشاى

كانت شقة بارى أشبه بالاتلييه ، فهى حجرة واسعــة تطل على منظر جميل لنهرالتيمس . وفى وســطها كان موقد مستدير له مدخنة تخترق السقف ٠ واتجــــه بنا بارى الى نافذة تطل على شارع جانبى ضيق ، وتواجه نافذة اخرى امامها مبـــــاشرة . وقال فى خبث بلهجته الاسكتلندية :

ــ هذه غرفة نوم برنارد شو ٠ وقد اعتدت كلمـــــا رأيت النور مضاء ان اقذفهــــا ببذور الكريز او نوى

المشمش . فاذا كانت به رغبة فى الثرثرة فتح النـافذة ، وتبادلنا قليلا من مسك السير . والا فانه لايكترث او يطفىء النور . فأكف عن المحاولة بعد النذيفة الثالثة

وكانت شركة بارامونت فى ذلك الوقت تزمعاخـراج « بيتر بان » فيلما فى هوليوود . وقلت لبارى :

ـ ان فى بيتر بان امكانيات سينمائية أكثر مما فيهـا كمسرحية ..

فوافقنى .. وأظهر رغبة شديدة فى أن يكون فى الفيلم منظر يبدو فيه « وندى » وهو يدفع العفـاريت الى الدخول فى جذع شجرة ..

وفى اليوم التالى ذهبنا انا وأيدى نبتاع بعض الحاجات فاقترح ايدى أن نمر على برنارد شو . ولم يكن ثمـة موعد محدد بيننا . ولكن ايدى قال :

ـ ليس علينا الا آن نهبط عليه

وفى الساعة الرابعة مساء ضغط ايدى بأصـبعه على زر الجرس الخارجى لباب مسكن شـو فى اولف تيراس . وبينما هو ينتظر اذا بخجل مفاجىء يداهمنى . فقلت : « فى وقت آخر ! » .. ومضيت أركض هاربا فى الطريق . وهكذا ، لم يقدر لى ان أفوز بمتعة لقاء شو الا بعد ذلك ، فى عام ١٩٣١

ومضت فترة من الوقت بدأ نشاطى الاجتماعى بعدها يتقلص . كنت قد رايت المشـاهير والمفكرين ، وزرت مواطن طفولتى وصباى ، ولم يعد هناك ما أفعله فى لندن غير القفز الى سيارات التاكسى ، أو القفز منها ، هـربا من الجماهير . ولما كان ارى نوبلوك قد رحـل الى برايتون ، فقد قررت فجأة ان أحزم أمتعتى ، وانطلق الى باريس ، هاربا من كل شىء ..

الفصل السادس

غزو فرنسا

* دخلت فرنسا كأنى نابليون !
* فى برلين لم يعرفنى أحد !
* أول وسام حصلت عليه
* صديقى هـ . ج . ويلز

سافرت بغير اعلان : او هكذا ظننت . ولكن جمعــا كبيرا كان ينتظرني في « كاليه » . وتصاعدت هتــافات « يحيا شارلى ! » أثناء هبوطى على السلم

وكنا قد عبرنا بحرا هائجا ،وتركت نصف قواي وراثي في القنال . ومع ذلك لوحت لهم وابتسمت في ضعف . ثم جروني ، ودفعوني وزنقوني في القطار . وعند وصولنا الى باريس حياني جمع كبير ، وكردون من رجال البوليس . ثم دفعوني مرة اخرى ، قبل ان يحملوني ـ بمســاعدة البوليس ـ ويشحنوني في سيارة تاكسى ..

وقد كان كل ذلك بصراحة .. أمرا مســليا تمتعت به ، ولكنه كان اكثر مما كنت أود ، ومع انه كان استقبالا مثيرا ، فان انفعالى به تركني مرهقا

وفي فندق كلاريدج ، بدأ جرس التليفون يدق باصرار مرة كل عشر دقائق ، معلنا أن سكرتيرة المس آن مورجان تطلبنا ، فأدركت ان الامر لابد متعلق بطلب ما ، اذ أنها كانت بنت « ج . ب . مورجان » . ولهــذا تهربنا من السكرتيرة . ولكن السكرتيرة أبت ان نتهــرب منها : ألا أسمح بمقابلة المس مورجان ، انها لن تأخذ الكثير من وقتي .. فأذعنت ووعدت بأن أقابلها في فندقي في الســاعة الرابعة الا الربع ولكن مس مورجان تأخرت . فشرعت أغادر الفندق بعد عشر دقائق . وبينما انا اجتــاز

الردهة اذا بالمدير يعدو ليلحق بى ، ويقول باهتمـــــام شديد :

ــ مس آن مورجان جاءت لمقابلتك يا سيدى

ففاظنى الالحاح والاصرار من جانبها ، ثم مجيئهـــا بعد ذلك متأخرة ! وقلت وأنا أحييها مبتسما :

ــ اننى آسف • لان عندى موعدا فى الرابعة

فقالت :

ــ أوه ، حقاً ؟ على أية حال لن أعطلك أكثر من خمس دقائق ••

فنظرت الى ساعة الحائط • كان قد بقى على الرابعة خمس دقائق • وبدأت تتـــكلم ونحن ما نزال نبحث عن مكان نجلس فيه فى الردهة :

ــ يحسن أن تجلس لحظة •• اننى أشارك فى جمـــع التبرعات لاعادة بناء فرنسا المخربة ، فاذا استطعنا أن نحصل على فيلمك « الطفل » لعرضـــه فى حفلة كبرى ، وظهرت انت فى الحفلة ، امكننـــا أن نجمع الوفا من الدولارات ••

فأخبرتها ان فى استطاعتها أخذ الفيلم من أجل هــذه المناسبة ، ولكننى لن أظهر معه

فقالت بالحاح :

ــ ولكن حضورك سيضيف عدة آلاف من الدولارات . وأنا واثقة من أنك ستحصل على وسام

فاستحوزت على روح شريرة ، ونظرت اليهـا نظرة ثابتة :

ــ هل أنت واثقة ؟

نضحكت مس مورجان وقالت :

ــ لا يملك أحد أكثر من تقديم التوصية الى الحكومة ، وسأبذل بالطبع غاية جهدى

فنظرت الى ساعة الحائط وبسطت لها يدى :
ـ اننى آسف جدا ، ولكنى مضطر للانصراف الآن .
وعلى أية حال فسأكون فى برلين خلال الايام الثلاثة القادمة ، ويمكن أن تخبرينى هناك

وبهذه الاشارة الخفيفه ودعتها . وانى لاعلم انه كان عملا سيئا من جانبى .. وفى اللحظة التى غادرت فيها الفندق ندمت على هذه الصفاقة

وفى اليوم التالى ، وصلت الى برلين

وكان سلوك الجماهير هناك عجيبا . فقد جردت من كل شىء الا شخصيتى . وهذه لم تستطع أن تحصل لى ولا حتى على مائدة لائقة فى أحد النوادى الليلية فأفلامى لم تكن بعد قد عرضت هناك

ولم أستطع أن أحصل على مكان بعيد عن تيار الهواء الا أخيرا ، عندما تعرف على ضابط أمريكى ، وأخبر صاحب المحل فى غضب من أنا . وكان مما يستحق المشاهدة رد الفعل عند الادارة عندما بدأ يتجمع حول مائدتى أولئك الذين عرفونى . وكان منهم رجل المانى سبق أن أسر فى انجلترا وشاهد فيلمين أو ثلاثة من أفلامى ، فصرخ فجأة :

ـ شـ .. أ .. أ .. ر .. لى !

ثم التفت الى الزبائن المذهولين :

ـ أتعرفون من هذا ؟ انه شـ .. ا .. ا .. ر لى !

ثم احتضننى بطريقة هستيرية وقبلنى .. ولكن هذا الانفعال كله لم يثر غير انتباه محدود . ولم أفز ببعض الاهتمام الا عندما طلبت « بولا نجرى » الممثلة الالمانية . و « حبة عين » الجميع ، أن أنضم الى مائدتها ..

وبعد وصولى بيوم تلقيت رسالة غامضة تقول :

« صديقى العزيز شارلى ..

« أشياء كثيرة وقعت لى منذ التقينا فى نيويورك فى سهرة « دورلى فيلد مالون » . وأنا الان مريض جـــدا فى المستشفى . فأرجـوك أن تحضر لزيارتى .. ان ذلك سيبهجنى كثيرا » ..

ثم أضاف الكاتب عنوان المستشفى ، ووقع باسـم جورج ..

ولم أستطع فى البداية أن أتحقق من يكون هذاالرجل. ولكننى فجأة تذكرت : انه بالطبع جورج البلغـارى الذى كان مقـــدرا له أن يعود الى السجن لقضاء ١٨ عاما . وبدا لى واضحا من لهجة خطابه .. أن المسألة كلهـــا ستنتهى الى طلب معونة . فرأيت أن آخذ معى خمسمائة دولار

وإذ بهم فى المستشفى يدخلوننى ــ لدهشتى الشديدة ــ الى قاعة واسعة بها مكتب ، وجهازان للتليفون .. حيث حيانى رجلان فى ثياب مدنية انيقة . عرفت فيما بعـــد انهما سكرتيران خاصان لجورج ! وقادنى احدهما الى الغرفة المجاورة ، كان جورج راقدا فى فراشه .. وهب يصافحنى بحرارة :

ــ صديقى : كم أنا سعيد بحضورك .. اننى لم أنس أبدا عطفك ورقتك أثناء سهرة دورلى مالون !

ثم أصدر أمرا حازما الى سكرتيره ، فتركنا وحدنا

ولما كان هو لم يقدم أى تفسير حول مغادرته الولايات المتحدة ، فقد أحسست انه ليس من اللائق أن أسـألـه فضلا عن أنه كان منصرفا الى السؤال عن أصـــدقائه فى نيويورك . وتملكتنى الحيرة ، ولم استطع ان افهم شيئا عن الموقف : فقد كان الامر اشبه باسقاط عدة فصول من كتاب . ثم جاءت المفاجأة عندما شرح لى أنه الآن يعمـــل

ممثلا تجاريا للحكومة البلشفية . وانه جاء الى برلـــين لشراء قاطرات سكة حديد ، وكبارى من الصلب

وهكذا عدت بدولاراتى الخمسمائة كما هى لم تمس !

***

كانت برلين شيئا يثير الاكتئاب ٠٠ اذ كان ـمايزالـ يحلق عليها جو الهزيمة ، بما خلفته من البقايا المبكية من الجنود مبتورى الأذرع والسيقان وهم يستجدون فى كل زاوية من كل شارع

وفى ذلك الوقت بدأت أتلقى برقيات مشحونة بالقلق من سكرتيرة مس آن مورجان ، اذ كانت الصحافة قـد أعلنت بالفعل عن ظهورى فى التروكاديرو . فأبرقت من جانبى أجيب بأننى لم اعد بالحضور ، وبأننى لكى أكون امينا مع الجمهور الفرنسي سوف اعلن له الحقيقة

واخيرا وصلت برقية تقول :

« عندى تأكيد مطلق بأنك ستنال وساما اذا حضرت . وكان ذلك بعد سلسلة من المناورات والازمات الحقيقية ٠٠ آن مورجا ٠٠ »

وهكذا عدت الى باريس بعد ثلاثة أيام فى برلين ٠٠

وفى ليلة الافتتاح فى التروكاديرو جلست فى لوج واحـد مع سيسيل سوريل ، وآن مورجان ، وكثيرين آخرين . ومال سيسيل على أذنى هامسا بالسر الخطير :

ـ ستنال الليلة وساما .

فقلت بتواضع : « شىء رائع ! »

وبدأ يعرض فيلم تسجيلى لا نهـــاية له ، دام حتى الاستراحة . واضيئت الانوار بعد أن بلغ الضـــيق بى غايته . ثم جاء موظفان رسميان وصـــــحبانى الى لوج الوزير . وتبعنا حشد من الصحفيين ظل أحدهم ـ وهـو

امريكى ـ يهمس فى قفاى :

ـ سيمنحوك الليجيون دونير يا جدع !..

وبينما الوزير يقدم لى الوسام ، ظلّ هذا الصـــديق يوالينى بسيل همساته :

ـ ضحكوا عليك يا جدع ! ليس هذا هو اللون المطلوب . انه الوسام الذى يعطونه للمدرسين . انك لاتعرض خديك للقبلات من أجل هذا . ان ما تريد هو الشريط الاحمـر

غير اننى فى الواقع كنت سعيدا جدا بأن يكرمونى هكذا فى مستوى واحد مع المدرسين . وكانت براءة الوســـام تقول : « شارلى شابلن ، الممثل ، الفنـــان ، من رجال التعليم العام .. الخ »

وتلقيت بعد ذلك رسالة شكر بديعة من آن مورجان . ودعوة الى الغداء فى اليوم التالى فى فيلا تريانون ،بفرساى قائلة انها سترانى هناك . وهو غداء ضم الامير جـورج اليونانى ، وليدى سارة ويلســـون ، والمركيز تايران بريجور ، والقائد بول لوبس ويلر ، والزا ماكســويل ، وكثيرين آخرين . ولست اذكر الان شيئا مما قيـــل او حدث اثناء تلك المناسبة الكبرى ، فقد كنت منصرفا الى التأثير بجاذبيتى على الحاضرين !

وفى اليوم التالى كان مقررا أن أعود الى لندن لتناول الغداء مع سير فيليب ساسون ،ولورد وليدى روكسافاج، حيث اقابل لويد جورج . ولكن الطائرة ارغمت بســبب الضباب على الهبوط على الساحل الفرنسى ، فوصـــلنا متأخرين ثلاث ساعات

وكانت هناك زيارة اخرى لـ «هـ . ج . ويلز» فى منزله الريفى بمزرعة الكونتس وادربك .. حيث كان يقيم مع زوجته وولديه العائدين لتوهما من كامبردج ..

وكنت قد دعيت لقضاء ليلتي هناك .. وجاء بعد الظهر اكثر من ثلاثين من اعضاء جامعة كامبردج ، وجلسوا معا في الحديقة كما تجلس جماعة مدرسية امام الكاميرا ، وراحوا يتأملونني في صمت كما يتأملون مخلوقا من كوكب آخر ..

وفي المساء مضت عائلة ويلز تلعب لعبة اسمها «حيوان أم نبات أم جماد» .. جعلتني اشعر كما لو كنت اجتاز اختبارا لقياس الذكاء

ومما لا يزال عالقا بذهني حتى الآن من تلك الزيارة مفارش السرير الباردة كالثلج ، وذهابي الى غرفة النوم على ضوء الشموع . فقد كانت تلك ابرد ليلة قضيتها في انجلترا . وبعد ان نفضت الثلوج عن نفسي في الصباح التالي سألني ويلز كيف قضيت ليلتي ، فقلت بأدب :

ـ كانت ليلة طيبة ..

قال ببراءة :

ـ كثير من ضيوفنا يشكون من أن الغرفة باردة

ـ انا شخصيا لا اقول انها باردة . وان كل مافي الامر انها مثلجة !

فانفجر ضاحكا ..

وثمة ذكريات أخرى عندي عن هذه الزيارة لويلز : حجرة مكتبه الصغيرة البسيطة التي تحبس عنها الضوء ظلال الاشجار في الخارج . والمائدة المائلة ذات الطراز العتيق التي يكتب عليها بجوار النافذة. وزوجته الوسيمة الملائكية وهي تتجول بي في كنيسة تعود للقرن الحادي عشر . والقصة التي رواها ويلز عن فرانك هارس . . اذ قال ويلز انه حين كان كاتبا ناشئا مكافحا .. كتب مقالا من أوائل مقالاته العلمية يتناول فيه البعد الرابع ، وارسله الى عديد من المجلات دون فائدة ، واخيرا تلقى

مذكرة من فرانك هاريس يدعوه فيها الى مقـــابلته فى مكتبه ..

قال ويلز : « وبالرغم من أننى كنت مفلســا فاننى اشتريت للمناسبة قبعة عالية مستعملة . وحيانى هاريس بقوله :

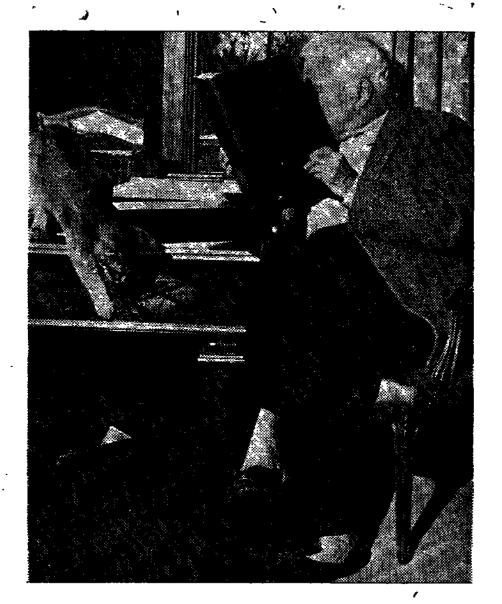
ــ بحق الجحيم من أين جئت بهذه القبعة ؟ وبحــق الجحيم ما الذى يجعلك تظن ان فى استطاعتك بيع مقالات من هذا النوع المجلات ؟

ثم قذف بالاصول على المكتب قائلا : « أنه مقال بالغ الفطنة . وليس للفطنة سوق فى هذه المهنة ! .. »

وكنت وضعت قبعتى بعناية على ركن المكتب . وظل فرانك هاريس طوال المقابلة يدق بيده على المكتب مؤكدا ما يقول ، مما جعل القبعة ترقص وتتجول فيما حولها . ولبثت خائفا طول الوقت من أن تهبط قبضته عليهامباشرة فى أية لحظة . على انه أشترى المقال ، واتفق معى عــلى مقالات أخرى ..

واخيرا بلغت المرحلة التى تحققت فيها من اننى سأشعر بالبطالة اذا بقيت اكثر من ذلك فى لندن

كان يؤسفنى أن اغادر انجلترا ولكن لم يكن هناك مزيد تستطيع الشهرة ان تمنحنى اياه . فأنا سأعود راضيا تمام الرضى . وان كنت سأعود اسفا الى حد ما .. لاننى سأترك ورائى ، لا ضجة التقدير من جانب الاغنيـــاء والمشاهير الذين استقبلونى فى حفلاتهم ، وانما ايضــا حرارة الحب المخلص من جانب جموع الانجليز والفرنسيين الذين وقفوا ينتظروننى للترحيب بى فى واترلوو . وجار دى نور » ، ومحنة الدفع بى وشحنى فى التاكسى أمامهم دون أن اتمكن من التجاوب معهم .. مما كان يجعــلنى اشعر كأننى أدوس على بساط من الازهار



شارلى شابلن عند كتابة مذكراته

كذلك فاننى كنت سأترك ماضى ورائى . فتلك الزيارة التى قمت بها الى كننجتون ـ ٣ شارع بوندال تيراس ـ كانت قد أتمت شيئا فى داخلى . وصرت الان راضيا بالعودة الى كاليفورنيا واستئناف العمل

الفصل السابع

وداعًا يا أمي

* نصيحة أمي : أن أشتغل بالدين
* آخر كلماتها : ربما !

ما كدت اعود الى هوليـــــوود حتى عرجت على أمى فوجدتها مبتهجة ، سعيدة ، وقد سمعت كل شيء عـــن زيارتى الظافرة للندن . وقلت لها مداعبا : ما رأيك الان فى ابنك وفى كل هذا الهجص ؟

قالت :

ـ شيء رائع . ولكن ألا تفضل أن تعيش حقيقة نفسك، بدلا من هذا العالم المسرحى الموهوم ؟

فضحكت وقلت :

ـ أجيبى أنت . فأنت المسئولة عن عالم الوهم هذا

فصمتت لحظة ، ثم قالت :

ـ لو انك وضعت مواهبك هذه فى خدمة الرب ، ففكر كم من آلاف الارواح كان يمكن أن تكسبها ..

فابتسمت قائلا :

ـ لعلنى كنت أكسب الكثير من الارواح، ولكن لاأكسب أى نقود !

وفى طريق عودتى حدثتنى مسز ريفز ، زوجـــة مدير أعمالى التى كانت شديدة الولع بأمى فقالت اننى منــذ سافرت كانت أمى فى صحة طيبة ، ولم تحـــدث لها أية نوبات عقلية . وكانت دائما مبتهجة ، سعيدة ، ولا تشعر بأية مسئولية

وكانت مسز ريفز تحب أن تزور أمى ، لانهـــا كانت تسليها وتضحكها برواية نوادر مختلفة من الماضى

على انه كانت هناك بالطبع لحظات يسيطر فيها العناد عليها . وقد روت لى مسز ريفز حكاية اليوم الذى صحبتها فيه هى والممرضة الى المدينة لشراء بعض الثياب. فقد استحوذت عليها نزوة مفاجئة جعلتها ترفض النزول من السيارة قائلة :

— دعيهم يجيئون الى ! أنهم فى انجلترا يجيئون الى سيارتى !

فلما هبطت اخيرا ، قامت على خدمتهن فتاة شابة لطيفة ، وعرضت عليهن عديدا من أثواب القماش . وكان منها ثوب بنى اللون رات الممرضة ومسز ريفز انه ملائم ، ولكن أمى غضبت عليه . وقالت فى اكثر لهجاتها الانجليزية تحضرا وارستقراطية :

— انه لون « السبانخ » ! أريد شيئا أكثر اشراقا !

فاطاعت الفتاة وهى مذهولة لا تكاد تصدق اذنيها

وروت لى مسز ريفز ايضا عن ذهابها مع امى الى مزرعة للنعام ، حيث صحبهما حارس المزرعة — كان رجلا مجاملا وصديقا — الى اقسام التفريخ . وامسك باحدى بيضات النعام قائلا :

— ستفقس هذه حوالى الاسبوع القادم تقريبا

واذا بالرجل يستدعى لمكالمة تليفونية ، فترك البيضة فى يد الممرضة مستأذنا . وما كاد ينصرف حتى اختطفت أمى البيضة من يد الممرضة قائلة :

— أعيديها للنعامة المسكينة الملعينة !

ثم قذفت بها الى القفص ، حيث انفجرت بصوت عال . فأسرعت الممرضة ومسز ريفز تجران أمى خارج مزرعة النعام قبل أن يعود الحارس

وكثيرا ما كانت امى تجىء الى بيتى فى تلال بيفـرلى ، لترى طفلى الصغيرين : شارلى وسيدنى . وما زلت اذكـر زيارتها الاولى ، وقد فرغت لتوى من بناء البيت الذى كان مؤثثا باسلوب جميل ، ومزودا بهيئة كاملة من الخـدم والوصيفات .. الخ . فراحت تتأمل الحجرة ، ثم نظرت من النافذة الى منظر المحيط الهادى الذى يبعد عنا أربعة أميال .. بينما نحن ننتظر تعليقها

واذا بها تقول :

ـ حرام ان يقلق الانسان هذا الصمت !

وكان يبدو على امى دائما انها تنظر الى نجاحى وثرائى كأمر طبيعى فلم يحدث ان علقت عليهما الا ذات يوم ونحن وحدنا فى ممشى الحديقة .. عندما ابدت اعجابها بالحديقة والعناية بها ، فقلت لها :

ـ آمى . ها أنذا ... شارلى

فصمتت لحظة ثم نظرت الى قائلة :

ـ لا بد انك بالغ الثراء !

ـ اسمعى يا أمى . اننى فى هذه اللحظة اساوى خمسة ملايين دولار

فهزت راسها فى تفكير ، وقالت :

ـ المهم ان تحافظ على صحتك . حتى تستمتع بهـذه الثروة ..

وكان هذا تعليقها الوحيد

***

وقد ظلت أمى مستمتعة بصحتها لمدة عامين بعد ذلك. ولكننى وأنا مشغول باخراج فيلم « السيرك » تلقيت رسالة تنبئنى بمرضها . وكانت قد اصيبت قبل ذلك بأزمـة التهاب فى المرارة وشفيت منها . فاذا بالاطباء هـذه المرة

ينذروننى بأن نكستها قد تكون خطيرة . ونقلناها الى مستشفى جلندال ، ولكن الاطباء رأوا عدم اجراء العملية الجراحية بسبب مرض قلبها

وعندما وصلت الى المستشفى كانت فى شبه غيبوبة بسبب دواء أعطوه لها بقصد تخفيف الالم

وهمست لها برفق :

ـ أمى هأنذا .. شارلى ..

ثم تناولت يدها بين يدى . فاستجابت فى ضعف ضاغطة عليهما . ثم فتحت عينيها وأرادت أن تجلس ، ولكنها كانت أضعف من أن تفعل وكانت تتململ فى فراشها وتشكو من الالم .. فلما حاولت أن أؤكد لها انها ستشفى قالت فى ارهاق :

ـ ربما ..

ثم ضغطت على يدى مرة أخرى ، وراحت فى غيبوبة

وفى اليوم التالى أبلغت أثناء العمل أنها ماتت . وكنت قد تهيأت لهذا النبأ ، لان الطبيب كان قد أنذرنى

وعلى الفور توقفت عن العمل . وازلت اثار الماكياج ، ثم ذهبت الى المستشفى بصحبة هارى كروكر ، مساعد المخرج الذى يعمل معى

وانتظر هارى فى الخارج ، بينما دخلت انا الغرفة وجلست فى مقعد بين النافذة والسرير . كانت الستائر نصف مسدلة . وضوء الشمس فى الخارج غامر كالصمت فى الحجرة . وجلست اتأمل ذلك الجسم المستلقى على الفراش بوجه مائل الى اعلى ، وعينين مغلقتين . حتى بعد الموت كان تعبير وجهها يبدو مهموما ، كما لو كانت تتوقع مزيدا من الالام . وكم كان غريبا أن تنتهى حياتها هنا ،

على مقربة من هوليوود بكل قيمها الخرقاء ، وعلى مسافة سبعة الاف ميل من « لامبث » .. موطن تعاستها . وبدأ يدهمني فيض من الذكريات من كفاحها طول الحياة ، ومعاناتها ، وشجاعتها ، ومحنة عمرها الضائع .. فبكيت . ومضت ساعة قبل ان افيق الى نفسي واغادر الحجرة . كان هاري كروكر مازال ينتظر ، فاعتذرت عن ابقائه طول هذا الوقت . ولكنه بالطبع كان يقدر ويفهم . وركبنا السيارة في صمت الى البيت

وسئلت هل أريد تحنيط جثتها ، فأفزعتني هذه الفكرة ! كلا . بل فضلت ان تدفن في الارض الخضراء ، حيث ما تزال ترقد حتى الان في مقابر هوليوود

***

لست ادري هل رسمت لامي الصورة التي هي جديرة بها ام لا . ولكن الذي اعرفه عن يقين هو انها دائما حملت عبئها راضية . ان الطيبة والحنان كانا ابر فضائلها . وبالرغم من تدينها ، فانها كانت تحب الخاطئين وترى نفسها فيهم . ولم يكن في طبيعتها ذرة من الفظاظة . وما من تعبير لاذع جرى على لسانها الا وكان بليغا في ملائمته لمقتضى الحال . وبالرغم من حياة الفقر والانحطاط التي أرغمتني على أن نحياها ، الا أنها حمتنا – أنا وسيدني – من الشارع ، وجعلتنا نشعر بأننا لسنا نتاجا عاديا للفقر ، بل أشخاصا منفردين وممتازين

الفصل الثامن

فتـــاة فى فــراشى

* اقتراح بالزواج .. لمصلحة استثمارات بارامونت !
* صورت الفيلم قبل أن أضع القصة !
* عندما كتبت وصيتى ..

وصلت الآن الى المرحلة الختاميه من عقدى مع فرست ناشونال . وبدأت أتطلع الى اليوم الذى ينتهى فيه . فقد كان رجال هذه الشركة لا ذوق لهم . وكانت روحهم معادية ، ونظرهم قصيرا . وكنت أتوق الى الخلاص منهم

وكان انتاج الافلام الثلاثة الاخيرة الباقية مهمة ثقيلة على نفسى ، بدأت فأخرجت « يوم القبض » من بكرتين ، فبقى فيلمان آخران . ثم أخرجت « الحاج » فيلما طويلا ، فكان معنى ذلك العودة الى مفاوضات أخرى مزعجة مع فرست ناشونال . ولكن الموقف كان كما وصفه سام جولدوين بقوله :

ــ ان شارلى ليس رجل اعمال . كل ما يعرفه هو الا يأخذ أقل مما يطلب

وانتهت المفاوضات بنتيجة مرضية . فبعد النجاح الساحق الذى حققه « الطفل » لم ألق مقاومة كبيرة من جانبهم لشروطى الخاصة بفيلم « الحاج » : وهى أن يعتبر الفيلم مساويا لفيلمين ، وان احصل منه على ٤٠٠ الف دولار ونسبة من الارباح ..

هكذا تحررت وصار فى استطاعتى ان انضم الى زملائى فى « الفنانين المتحدين »

حوالى هذا الوقت ظهرت فى مجتمع هوليوود الفاتنة « بيجى هوبكنز جويس » .. المشهورة بزيجاتها المتعددة

ومجوهراتها ، والثلاثة ملايين دولار التى جمعتهـــا من أزواجها الخمسة كما قالت لى

وكانت بيجى من أصل متواضع . اذ كان ابوها حلاقا ، وانضمت هى الى فرقة ريجفيلد اوراقصة ، ثم تزوجت بعد ذلك من خمسة من اصحاب الملايين واحدا بعد الاخر .. ومع انها كانت ما تزال جميلة ، فانها كانت تبدو متعبـــة قليلا . وكانت قادمة من باريس فى ثياب سوداء انيقة ، لان شابا فرنسيا كان قد انتحر من أجلها !

وقد أسرت لى ذات مرة ــ ونحن وحدنا ــ انهـا تكره الشهرة . وقالت وهى تعدل من وضع اساورها الماسية حول ذراعها :

ــ كل ما أريده هو أن اتزوج وأنجب اطفالا . فـــأنا فى أعماقى امرأة بسيطة

وكانت تسمى الاساور الملتفة حول ذراعها من أعلى : شرائط خدمتى !

وكان مما روته لى انها فى ليلة زفافها الى أحد أزواجها أغلقت على نفسها باب المخدع ، ورفضت أن تسمح لـــه بالدخول الا اذا دس لها من تحت الباب شيكا بنصف مليون دولار :

ــ وهل فعل ؟

ــ نعم .. وصرفت الشيك فى الصباح المبكر قبـــل ان يستيقظ من النوم . ولكنه كان رجلا سكيرا . وذات مرة ضربته على رأسه بزجاجة شامبانيا ، ونقلتـــــه الى المستشفى ..

ــ وكان هذا سبب الفراق بينكما ؟

ــ كلا .. لقد سره ذلك فيما يبدو ، وازداد ولعه بى ..

وقد كانت النوادر الكثيرة التى روتهـــا لى بيجى عن

علاقتنا بأحد الناشرين الفرنسيين هى المصـــدر الذى استقيت منه قصة فيلم « امرأة من باريس » .. ولعبت بطولته « أونا بورفيانس »

***

قبل ان انتهى من فيلم امرأة من باريس ، بدأت « بولا نجرى » غزوتها لهوليوود . واحاطت بها دعايات مبـــالغ فيها ، تعتمد على افتعال الخلافات بينها وبين جـلوريا سوانسون . فكانت عناوين الصحف تعلن : نجرى تطالب « بحجرة سوانسون فى الاستديو » ، « جلوريا ترفض مقابلة بولا نجرى » ، « نجرى ترفض دعوة جلوريا » .. وهكذا دون ان يكون لجلوريا او بولا اى ذنب . فقد كانتـــا فى الحقيقة صديقتين منذ تعارفتا

والتقيت ببولا فى حفلة سيمفونية تصادف ان كان بنوارى فيها مجاورا لبنوارها . واذا بها تهتف :

ـ شارلى ! لماذا لم تتصل بى ؟ . ألا تعرف اننى قطعت كل هذه المسافة من ألمانيا لـكى أراك ..

فأخذنى الزهو ، وان كنت لم أستطع أن أصدق . فأنا لم أرها قبل ذلك غير مرة واحدة فى برلين .. لمدة عشرين دقيقة . اما هى فاستطردت :

ـ أنت قاسى جدا يا شارلى . لقد انتظرت طـويلا أن تتصل بى . أين تعمل الان ؟ اعطنى رقم تليفونك وأنا اتصل بك ..

فلم أسترح كثيرا الى كل هذا الود . ولكن اهتمام بولا الجميلة كان له بالطبع اثر على . وبعـــد ايام دعتنى الى سهرة فى البيت الذى استأجرته فى تلال بيفرلى . وتعدد بعد ذلك ظهورنا معا فى الاماكن العامة . وسرعان ما بدأت عناوين الصحف تعلن : شارلى وبولا مخطوبان . وانزعجت

بولا كثيرا ، وقالت اننى يجب ان اصدر تصريحـــا . فأجبتهـــا :

ـ المفروض أن يجيء التصريح من السيدة

ـ ماذا تقترح ان اقول لهم ؟

فهززت كتفى بغير اكتراث ..

وفى اليوم التالى تلقيت رسالة تقول ان المس نجـرى لن تستطيع مقابلتى . ولكن خادمتها اتصـــلت بى فى تلك الليلة لتقول فى ذعر ان سيدتها مريضة جدا ، وتطلب ان احضر فى الحال . فلما ذهبت وجدتها مستلقية على كنبة طويلة ، وعيناها مغلقتان . وكان اول ما قالته عنـــــدما فتحت عينيها :

ـ انت رجل قاس !

ووجدت نفسى ـ برغم انفى ـ فى دور كازانوفا ! ..

ثم جاء مدير اعمالها ـ شارلى هيتون ـ بعد ذلك بيوم او يومين ، يقول لى :

ـ لقد سببت لنا كثيرا من المتاعب يا شارلى . فكل هذه الاشاعات التى تنشرها الصحف قد اثرت على صحة بولا . فلماذا لا تعلن تصريحا يوقفها ؟

ـ ماذا تريد منى ان اقول ؟

فأجاب بخبث :

ـ انت مولع بها ، أليس كذلك ؟

ـ ليس هذا شأن أحد غيرى

ـ ولكن لدينا ملايين من الدولارات مستثمرة فى هـــذه المراة ! وهذه الدعاية تسيء اليها . اسمع يا شـــارلى ، ما دمت معجبا بها فلماذا لا تتزوجها ؟

فاغتظت . وقلت له :

ـ اذا كنت تتصور اننى سأتزوج شخصا معينا لمجرد

حماية استثمارات بارامونت ، فأنت مخطىء جدا
قال :
ـ اذن فلا تقابلها مرة أخرى ..
ـ هذا شأن بولا
وانتهت المقابلة بتعليق جارح من جانبى ، ملخصه:اننى لا ارى مبررا للزواج من بولا وأنا لا أملك أى سهم فى بارامونت ..
وهكذا انتهت علاقتى ببولا فجأة كما بدأت فجأة . ولم تتصل بى أبدا بعد ذلك

***

اثناء هذه العلاقة المجنونة مع بولا ، وصلت الىالاستديو فتاة مكسيكية جاءت من بلادها سيرا على الاقدام من اجل أن ترى شارلى شابلن . ولما كانت لى خبرات سابقة بالملاحيس والشواذ فقد طلبت من مدير أعمالى أن«يتخلص منها بطريقة لطيفة »
وفى تلك الليلة كانت بولا ودكتور رينولدز وزوجته يتناولون العشاء عندى ، فرويت لهم الحكاية . واذا برئيس الخدم يدخل كالقذيفة الى حجرة الطعام وقد اصفر وجهه ذعرا ، وهو يقول :
ـ هناك فتاة فى فراشك !
ثم اضاف انه ذهب يرتب سريرى ، ففوجىء بها فى السرير ، مرتدية احدى بيجاماتى !
فقال رينولدز :
ـ سأذهب لاراها
ثم نهض وتركنا . بينما بقينا نحن ننتظر التطورات . وبعد قليل عاد الينا يروى ما حدث :
« لقد تكلمت معها . انها شابة صغيرة وجميلة ، وحديثها

يدل على الذكاء . وقد سألتها ماذا تفعل فى فراشـــك فقـــالت :

ـ أريد أن أقابل المستر شابلن

ـ الا تعلمين ان تصرفك هذا قد يعتبر دليلا على الجنون، وقد يؤدى الى ادخالك مستشفى الامراض العقلية ؟

فلم يبد عليها اى اضطراب . وأجابت :

ـ لست مجنونة . وانما انا مجرد معجبة بفن المستر شابلن ، وقد جئت من أقصى الدنيا لأراه ..

فنصحتها بأن الافضل لها ان تخلع بيجامتـــك فورا ، وتغادر المكان والا استدعينا لها البوليس ..

واذا ببولا تقول فجأة :

ـ اريد ان ارى هذه الفتاة . دعنا نستدعها الى غرفة الجلوس !

فحاولت أن أتهرب خشية الحرج الذى قد يؤدى اليـــه الموقف ..

على ان الفتاة جاءت على اية حال ودخلت الغرفة بثبات تام . وظهر ان رينولدز كان على حق : فقد كانت الفتاة حقا صغيرة وجذابة . وقالت لنا انها ظلت طول النهار تتسكع حول الاستديو ، فدعوناها الى العشاء ، ولكنها رفضت أن تتناول الا كوبا من اللبن

وبينما هى تحتسي الكوب ، راحت بولا تمطرها بالاسئلة:

ـ هل أنت واقعة فى غرام المستر شابلن

فضحكت الفتاة :

ـ فى غرامه ! اوه ، كلا ، انما انا معجبة به فقط ، لانه فنان عظيـــم

قالت بولا :

ـ وهل رأيت شيئا من افلامى ؟

فأجابت بلهجة عابرة :
ــ أوه ، طبعا
ــ مارأيك فيها ؟
ــ جيدة جدا . ولكنك لست فى عظمة المستر شابلن الفنية ..
فأصبح وجه بولا منظرا يستحق التأمل
أما انا فحذرت الفتاة من ان تصرفاتها قد يساء فهمها. ثم سألتها ما اذا كانت تملك اية وسيلة للعودة الى المكسيك فأجابت نعم . وبعد مزيد من النصائح التى وجهها اليهـا رينولدز غادرت البيت ..
ولكن .. فى اليوم التالى جاء رئيس الخدم مرة اخرى مندفعا ، يقول ان الفتاة راقدة فى عرض الطريق وقـــد سممت نفسها . فأسرعنا بغـــير تردد نطلب البوليس تليفونيا ، وحملوها فى سيارة اسعاف
وكانت ضجة صحفية فى اليوم التالى ، ونشرت صور الفتاة جالسة فى سريرها فى المستشفى . لقد عولجت بأنبوبة غسيل المعدة ، وبدأت الان تستقبل رجال الصـــحافة ، وأعلنت انها لم تأخذ سما ، وانما كانت تريد فقط ان تستثير الانتباه . وانها ليست واقعة فى غرام شارلى شابلن، وانما هى جاءت الى هوليوود لتحاول الظهور فى الافـلام
وبعد خروجها من المستشفى وضعت فى رعاية « عصبة الخير » ، التى كتبت لى رسالة رقيقة تسألنى عما اذا كنت اتفضل بمساعدتها فى العودة الى المكسيك . وتؤكد لى انها « فتاة لا ضرر منها » وليست سيئة
وهكذا دفعت أنا أجر عودتها

***

الآن صار فى اسـتطاعتى أن أنتج أول فيـلم لى مع « الفنانين المتحدين »

كنت اتلهف الى تحقيق نجاح أكبر من نجاح « الطفل » وقضيت اسابيع في المعاناة والتفكير محاولا أن اعثر على موضوع . وظللت أقول لنفسى : « يجب أن يكون الفيلم القادم حدثا تاريخيا ! ان يكون الفيلم الاعظم » ولكن بلا فائدة ..

الى ان كان صباح يوم من ايام الاحد ، وانا اقضى اجازة الاسبوع عند آل فيربانكس ، عندما جلست مع دوجلاس بعد الافطار نتفرج على عدد من الصور المجسمة . وكان بعضها مناظر طبيعية من الاسكا وكلونديك . وفى احداها كان يبدو ممر شيلكوت ، وطابور من المستكشفين يتسلقون الجبل المغطى بالثلج ، مع تعليق مطبوع على ظهر الصورة يصف المتاعب والصعاب التى عانوها فى تسلقه . فقلت لنفسى انه موضوع رائع يمكنه ان يستثير مخيلتى . وبدات الافكار والتصرفات الكوميدية على الفور تنمو وتتشكل فى راسى . وبالرغم من اننى لم اكن قد عثرت بعد على قصة ، فان هيكل القصة كان قد بدأ يوجد

ومن الحقائق العجيبة فى عالم الخلق الكوميدى أن المآسى عادة توحى بالسخرية : لان السخرية فى اعتقادى موقف من مواقف التحدى . فنحن نسخر فى مواجهة القوى التى نقف أمامها عاجزين والا أصابنا الجنون

كنت قد قرأت كتابا عن بعثة « دونر » التى ضلت الطريق الى كاليفورنيا ، وحاصرها الثلج فى صحراء نيفادا. فلم ينج من مائة وستين مستكشفا الا ثمانية عشر ، بينما مات الباقون بسبب الجوع والبرد . وارتد بعضهم الى التوحش فأكلوا جثث موتاهم ، بينما شوى آخرون احذيتهم ليسكتوا بها الجوع . فاذا بى استلهم من هذه المأساة الرهيبة واحدا من أكثر المناظر هزلا . وهو منظر أقوم فيه تحت وطأة الجوع بسلق حذائى ، واكله،

والتقط منه المسامير وامصها كما لو كانت قطعا شـــهية من العظم . ثم آكل اربطة الحذاء كما تؤكل المكرونة . بينما يتوهم زميلى ــ فى هذيان الجوع ــ اننى دجاجة ويريد ان يأكلنى ..

***

وقضيت ستة اشهر استولد واطور سلسلة من المشاهد الكوميدية ، ثم بدأت التصوير بغير سيناريو .. مؤمنا بأن قصة ما سوف تتولد من خلال العمــــل . وطبيعى اننى قطعت اشواطا فى أكثر من طريق مغلق ، وان مشاهد كثيرة ممتعة الغيت بعد تصويرها وكان منها مشهد غرامى مع فتاة من الاسكيمو ، تعلم الصعلوك التقبيل ــ على طريقتهم ــ بحك الانوف . فاذا ما هم الصعلوك بالرحيل بحثـاً عن الذهب ، دعك انفه بأنفها فى انفعال شديد وهو يودعها . وبعد أن يبتعد قليلا يستدير نحوها، ويلمس أنفهبأصبعه، ثم ينفخ اصبعه باعثا اليها بقبلة اخيرة فى الهواء ! واخـــيرا يمسح اصبعه فى بنطلونه لانه تذكر انه مصاب بالزكام ! ولكن مشهد فتاة الاسكيمو كله الغى بعد ذلك لتعارضه مع قصة أكثر اهمية تجرى مع فتاة تعمل فى صالة رقص

وقد تزوجت للمرة الثانية أثناء قيامى بتصوير هذا الفيلم « البحث عن الذهب » ولكن .. لان لنا من هذا الزواج ولدين اعتز بهما كثيرا ، فأنا لن ادخل فى أية تفاصيل . يكفى ان اقول اننا بقينا عامين نحاول ان نسير بسفينته ، ثم فقدنا الامل ، وانتهت قصته نهاية خلقت وراءها كثيرا من المرارة

***

وافتتح فيلم البحث عن الذهب فى سينما ســــتراند بنيويورك ، وشهدت حفلته الاولى

وما كدت أظهر فى بداية الفيلم وانا ادور حول احـــد

التلال غافلا عن الدب الذى يقتفى أثرى حتى قهقــــه المتفرجون وصفقوا ، وظل الضحك متواصلا طوال الفيلم ، تتخلله موجات من التصفيق . وجاء يعانقنى فيما بعـــد مدير توزيع الفنانين المتحدين « هيرام ابرافر » ويقول :

ـ شارلى . اضمن لك ان يبلغ ايراده على الاقل ستة ملايين دولار

وقد حـــدث !

ولكننى بعد حفلة العرض الاولى أصبت بانهيــــار مفاجىء ، اذ كنت ساعتها فى فندق ريتز ، ووجدت نفسى عاجزا عن التنفس . فأسرعت مذعورا اتصل بأحــــد اصدقائى بالتليفون ، وأقول لاهثا :

ـ اننى اموت . استدع المحامى فورا !

فأجاب بانزعاج :

ـ المحامى ! انك تحتاج الى طبيب

ـ لا لا . اريد المحامى . اريد ان اكتب وصيتى !

فما كان من صديقى المذعور الا أن استدعى الاثنين ولكن لما كان المحامى بالصدفة غائبا فى اوربا ، فقد جـــاء الطبيب وحده

وبعد الفحص المعتاد وجد اننى لا أشكو الا من أزمـــة عصبية . وقال :

ـ انه الطقس الحار .. ارحل عن نيويورك الى شاطىء المحيط حيث يمكنك أن تهدأ وتشم هواء البحر

ولم تكد تمضى نصف ساعة حتى كنت قد شحنت الى شاطىء برايتون . وفى الطريق وجدت نفسى ابكى بلاسبب واخيرا حصلت على حجرة تواجه المحيط فى احد الفنادق وجلست فى النافذة أملأ صدرى بهواء البحر . ولـكن الجموع سرعان ما بدأت تتزاحم خارج الفندق :

ـ هيه ٠٠ شارلى ! ٠٠ شارلى يا جدع !

فاضطررت الى التراجع عن النافذة حتى ابتعـــد عن الانظـــــار

ثم فجأة ،تصاعدت صرخة كنباح الكلب ! كان هناك رجل يغرق ، واسرع اليه عمال الانقاذ وحملوه الى تحت نافذتى مباشرة ، ولكن بعد فوات الاوان . فانه كان قد مات . ثم لم تكد تحمله عربة الاسعاف حتى نبح آخر ٠وبلغ مجموع الذين حملوهم فى ذلك اليوم ثلاثة اشخاص : نجا اثنان منهم . واصبحت حالتى اكثر سوءا ، فقررت ان أعود الى نيويورك

وبعد يومين كانت حالتى قد تحسنت بما يكفى للعودة الى كاليفورنيا

الفصل التاسع

الإمبراطور هيرست

* اسطورة ماريون وملك الصحافة
* قالت الممثلة : يا أخينا ! فقال الامبراطور : حاضر!
* التعايش السلمى بين الزوجة والعشيقة

اثناء عملي فى اخراج « البحث عن الذهب » تلقيت مكالمة تليفونية من النيور جلين :

— عزيزى شارلى .. يجب أن تتعـــرف الى ماريون ديفيز . انها حقا حبوبة . وتتمنى ان تراك . فما رأيك فى تناول العشاء معنا فى فندق امباسادور ، على ان تذهب بعد ذلك الى « باسارنيا » لتشاهد فيلمك « الطبقـــة العاطلة » ؟

ولم اكن قد قابلت ماريون قبل ذلك ، ولكن الدعـاية الصارخة المحيطة بها كانت تحاصرنى . فقد كانت هـذه الدعايات تحتل كل صحيفة ومجلة يملكها هيرســت ، وتصفع القارىء فى وجهه بطريقة مزعجة ، حتى ان بياتريس ليلى علقت على الانوار المتلألئة فى لوس انجلس عندما أخذها أحدهم للفرجة عليها :

— يا للروعة ! مفروض بالطبع ان هذه الانوار سـوف تلتحم فيما بعد وتكتب « ماريون ديفيز » .. ألبس كذلك

والواقع انه ما كان الانسان يفتح آية صحيفة من صحف هيرست دون ان تطالعه صورة ضخمة لماريون . وان كان هذا لم يؤد الا الى ابعاد الجمهور عن شباك التذاكر

ولكن حدث ذات ليلة أن شاهدت فى بيت آل فيربانكس فيلم ماريون ديفيز « عندما كانت الفروسية مزدهرة » . فاذا بى لدهشتى الشديدة اجدها ممثلة بالفعل ، ذات سحر وجاذبية ، وكفاءة تؤهلها لان تكون نجمة بغير دعاية

هيرست المزعجة • فلما رأيتها بعد ذلك فى عشاءالنيورجلين وجدتها بسيطة ، عذبة • ونشأت بيننا منذ تلك اللحظة صداقة وثيقة ••

وقد كانت العلاقة بين هيرست وماريون اسـطورة فى الولايات المتحدة ، بل وفى العالم كله . وهى علاقة ربطت اسميهما أكثر من ثلاثين عاما ، ودامت الى يوم وفاته ..
وليس معنى هذا ان الاثر كان طيبا على الدوام ، بالرغم مما كان له من صفات يمكن ان تمتدح • وانما كان لغز شخصيته هو الذى يذهلنى : صبيانيته ، وذكاؤه وطيبته ، وقسوته ، وضخامة ثروته ونفوذه •• وفوق هذا كلـه طبيعته الاصيلة • فقد كان ـ بمقاييسنا الارضية ـ اكثر الناس الدين عرفتهم فى حياتى تحررا وانطلاقا • وكانت امبراطوريته المالية شيئا خرافيا بلا حدود ، تتألف من عدة مئات من الصحف ، وأملاك واسعة بعضها عقارات فى نيويورك وبعضها مناجم ، ومساحات شاسعة من الاراضى فى المكسيك • وقد ذكر لى سـكرتيره الخـاص أن استثماراته بلغت ما يساوى ٤٠٠ مليون دولار ، وهو رقم هائل فى ذلك الوقت

والآراء حول هيرست متناقضة • فهو فى رأى البعض وطنى مخلص لامريكا ، وفى رأى البعض الاخر انتهازى لا يكترث الا بترويج صحفه وتنمية ثروته • على انه فى شبابه كان جريئا ومتحررا • وكان متمتعا دائما بمساندة والديه • ومما يروى ان رجل المال الامريكى « راسـل سدج » تقابل ذات مرة مع « فويب هيرست » ـ والدة راندولف ـ فى الشارع الخامس ، فقال لها :

ـ اذا استمر ابنك يهاجم وول ستريت « حى رجال الاعمال » فان صحيفته ستخسر مليون دولار فى العام •

فكان جواب الوالدة :

ــ بهذا المعدل يا مستر سيدج يستطيع ابنى ان يظل فى المهنة لمدة ٨٠ عاما !

وقد حدث فى أول لقاء مع هيرست اننى ارتكبت هفوة غير مقصودة • كان « سايم سلفرمان » محرر مجلـــــة « فاريتى » وناشرها قد أخذنى الى شقة هيرســـت فى « ريفرسايد درايفى » لتناول الغداء • وكانت الشقة تمثل مساكن الاغنياء التقليدية •• مؤلفة من دورين ، ومزينة بالصور النادرة ، والسقوف العالية ، والجدران المكسوة بخشب الموجنه ، والتحف الخزفية فى دواليب محفورة الى الداخل • وبعد ان قدمت الى عائلة هيرست ، جلسنا جميعا نتناول الطعام

وبدت مسز هيرست سيدة جذابة ، يتسم خلقهــــا بالبساطة والطيبة ، على عكس مستر هيرست الذى جلس يرمقنى بعينين جريئتين ، وتركنى أتولى الكلام

وقلت له :

ــ كانت أول مرة رأيتك فيها يا مستر هيرست فى مطعم الفنون الجميلة ، وكنت جالسا بين ســـيدتين • وأشار أحد أصدقائى اليك ••

واذا بأحد الجالسين يضغط على قدمى من تحت المائدة •• فأدركت انه سايم سلفرمان ••

أما هيرست فقال بلهجة فكهه :

ــ اوه !

فبدأت اتلعثم :

ــ حسنا •• اذا لم يكن هذا الشخص انت •• فلا شك انه كان يشبهك كثيرا • ان صديقى بالطبع لم يكن واثقا ••

فقال هيرست وهو يغمز بعينه :
ـ على أية حال ، ان المفيد للانســـان ان يكون له شبيه ..
فضحكت ضحكة لعلها كانت اعلى مما يجب ، وقلت :
ـ نعم ..
وخفت مسز هيرست الى نجدتى مؤكدة فى مرح :
ـ نعم .. من المفيد جدا !
على أن المسألة مرت فى النهاية بسلام . وسار العشاء بعدها فيما أعتقد سيرا طبيعيا
وكانت ماريون ديفيز قد جـــاءت الى هوليوود لتلعب ادوار البطولة فى أفلام هيرست العالمية ، فاستأجرت بيتا فى تلال بيفرلى ، بينما جاء هيرست بيخته الذى يبلـــغ طوله ٨٤ مترا الى ساحل كاليفورنيا مخترقا قناة بناما . ومنذ ذلك الوقت بدأت مستعمرة السينما تعيش عصرا من عصور الف ليلة وليلة . ففى كل اسبوع تقيم ماريون حفلتين او ثلاث حفلات من حفلات العشاء البازخة لضيوف يبلغ عددهم احيانا مائة شخص .. ويؤلفون خليطا من الممثلين والممثلات واعضاء مجلس الشيوخ ولاعبى البولو وفتيان الكورس والشخصيات الاجنبية ذات النفـــوذ وموظفى هيرست وهيئات تحرير صحفه . وكان يسود هذه السهرات جو من العبث والتوتر فى وقت واحد ، اذ لم يكن احد يستطيع ان يتنبأ بما سيكون عليه مزاج هيرست الزئبقى المتلون . وهو مزاج كان بمثابة البارومتر الذى يقرر ما اذا كانت الليلة سوف تستمر أم لا
وما زلت اذكر حادثة وقعت اثناء سهرة عشاء اقامتها ماريون فى بيتها المستأجر ، حيث وقف خمســـون من الموزعين هنا وهناك بينما هيرست جالس على مقعد عـــالى

الظهر ، يحيط به اعضاء اسرة التحرير ، وقد انصرف اليهم تماما . وكانت ماريون متكئة على كنبة طويلة .. وقد بدت متوهجة الجمال ولكن التأفف كان يزداد وضوحا على ملامحها كلما طال انشغال هيرست • واذا بها فجـأة تهتف بغيظ :

ــ انت يا اخينا !

فرفع هيرست رأسه :

ــ من تقصدين ؟ انا ؟

ــ نعم انت ! تعال هنا !

وتراجع موظفو هيرست مبتعدين • وتجمدت الحجرة في صمت مطبق

وضاقت عينا هيرست وهو جالس كتمثال ابى الهول ، والاكياس التى تحت عينيه تسود شيئا فشيئا ، وشفتاه تتحولان الى خط رفيع ، بينما اصابعه تنقر بانفعال على مسند مقعده الذى يشبه العرش ، وقد بدا أنه لم يقرر بعد ايدع غيظه ينفجر ام لا • وبدأت يدى تبحث عن قبعتى ولكنه فجأة وقف قائلا :

ــ حسنا • أعتقد اننى يجب أن أجيء

ثم اتجه اليها بخطوات لا رشاقة فيها وقال :

ــ ما الذى تريده سيدتى ؟

فقالت ماريون بلهجة متعالية :

ــ قم بعملك فى المدينة ، لا فى بيتى •• ان ضيوفى فى انتظار الشراب ، فأسرع اذن وقدم لهم شيئا ••

فقال هيرست :

ــ حاضر•• حاضر ••

ثم اسرع بهيئة مضحكة الى المطبخ • وابتسم الجميع وهم يتنفسون الصعداء

لم اعرف فى حياتى رجلا يبعثر الثروة دون اكتراث كما كان يفعل هيرست · فروكفلر كان يشـــعر بالعبء الادبى للمال ، وبيربونت مورجان كان واعيا بقوته ، أما هيرست فيكان ينفق الملايين دون تفكير كأنها مصروف جيبه الاسبوعى ··

وكان البيت الساحلى الذى اهداه الى ماريون فى سانت مونيكا قصرا فاخرا على الشاطىء ، استدعى له بنائين من ايطاليا ، ويحتوى على سبعين حجرة تؤلف فى مجموعها بنيانا من الطراز « الجيورجى » ·· يبلغ عرضه ثلاثين مترا ، وارتفاعه ثلاثة ادوار · وفيه قاعة للرقص جدرانها مكسوة برقائق الذهب ، وقاعة اخرى للطعام ، ولوحات بريشة رينولدز ولورنس « بعضها مقــلد » · وكان فى صالة المكتبة المكسوة بخشب البلوط زرار اذا ضغط عليه ارتفع جزء من الارضية ، وتحول الى شـــاشة لعرض الافلام !

أما مزرعة هيرست فى سان سيمون ،فكانت مساحتها ٤٠٠ الف فدان ، وتمتد مسافة ٣٠ ميلا على شــــاطىء المحيط الهادى · وكانت المنطقة السكنية فيها مقامة فوق هضبة كالقلعة ، ترتفع مائة وخمسين مترا عن ســـطح البحر ، وتبعد اربعة اميال عن الشاطىء · وقد بنى القصر الصيفى الرئيسى فيها من احجار قلاع قديمة شحنت من اوربا · وكان يحيط بها ـ كالطلائع الحارسة ـ خمس فيلات ايطالية مقامة على حافة الهضبة ، يتسع كل منهـا لاقامة ستة ضيوف · وفى القصر الرئيسى حجرات تتسع لثلاثين ضيفا آخرين ، وحجرة استقبال مساحتها ٩٠×٥٠ قدما ، تكسو جدرانها سجاجيد « جوبيلين » ، بعضها

إصيل ، وبعضها مقلد • وكان عدد موظفى القصر ستين موظفا ••

وعلى مسافة من القصر تسمح ببلوغ الصوت كانت توجد حديقة للحيوان تحتوى على اسود ونمــــور ودببة ونسانيس وقرود من عائلة « الاورانجو تانج » ، وطيور وزواحف • ومن الابواب الخارجية الى القصر يوجد طريق للسيارات يبلغ طوله خمسة اميال ، وعلى جانبيه لافتات تقول :

« الاولوية فى الطريق للحيوانات » ، فكان على الانسان ان ينتظر بسيارته الى ان يستقر رأى قطيع من النعام على الجلاء عن الطريق ، بينما قطعان الجاموس والغزلان •• الخ • تتجول فى كافة أنحاء المكان وتعرقل السير فيـــه

وكانت هناك سيارات مخصصة لاستقبال الزائرين فى محطة السكة الحديد ، ومطار خاص للهبوط اذا قدموا بالطائرة ••

اما وسائل الترفيه ، فكان منها السباحة ، وركوب الخيل ، والتنس ، والعاب من كافة الانواع ، او زيارة لحديقة الحيوان • وقد وضع هيرست قاعدة لا استغناء عنها ، وهى ألا تقدم الخمر قبل السادسة مساء • ولكن ماريون كانت تجمع اصدقاءها فى جناحها الخاص ، حيث تقدم لهم الشراب سرا

وكانت مسز هيرست تزور « سان سيمون » كل سنة، دون ان يثير ذلك اى تصادم • فالتعايش بين ماريون ومسز هيرست كان امرا متفاهما عليه من الجانبين : فاذا اقترب موعد وصول مسز هيرست رحلت ماريون ونحن معها ، أو عادت الى بيتها الساحلى فى سانتا مونيكا

وقد عرفت ميليسنت هيرست منذ عام ١٩١٦ ، وكانت

تربطنا صداقة قوية • وبذلك صار عندى جواز مرور الى كل من البيتين • فاذا كانت مسز هيرست هى المقيمة فى المزرعة مع اصدقائها من مجتمع سان فرانسيسكو ، ودعتنى الى قضاء العطلة الاسبوعية ، ذهبت متظـاهرا بأنها أول زيارة لى للمزرعة فى هذا الموسم • ولـــكن ميليسنت لم تكن تخدع نفسها • فالبرغم من تظاهرها بأنها تجهل أمر الجلاء الذى تم قبل وصولها ، فانها كانت تنظر الى المسألة بروح الفكاهة ، وتقول : لو لم تكن ماريون لكانت واحدة اخرى • وكثيرا ما حدثتنى فيما بيننا عن عـــلاقة ماريون بهيرست ، ولـــكن دون مرارة على الاطلاق ••

وقالت لى ذات مرة :

ـ انه ما زال يتصرف كأنما لم يحدث بيننا شيء ، وكأن ماريون لا وجود لها • فعندما اجيء يعاملنى بكل عذوبة وعطف • ولكنه لا يمكث معى اكثر من عدة ساعات ودائما يكرر نفس الروتين : اذ يجيء رئيس الخدم ونحن على مائدة الغداء ويسلمه ورقة ، فيستأذن وينسحب من المائدة • ثم يعود ليقول فى تخاذل ان هناك عملا هامـــا يقتضى منه الذهاب فورا الى لوس انجلس • فنتظاهر كلنا بتصديقه وان كنا نعرف جميعاً انه عائـــد بالطبع الى ماريون ••

كان هيرست على سجيته دائما بشكل يلفت النظر : فهو يرقص ـ اذا كان معتدل المزاج ـ رقصة الشارلستون المفضلة لديه بفظاظة ساحرة ، دون اكتراث برأى الناس فيه • ولم يكن لديه ادنى ميل الى التظاهر ، فهو لا يقدم الا على ما يتحمس له • وكان يشيع فى نفسى الاحساس

بأنه رجل غبى ـ ولعله كان حقا ، ولكنه لم يكن يبذل أى جهد ليكون غير ذلك ! ..

وكان كثير من الناس يظنون أن المقالات الافتتاحيــة اليومية الموقعة باسم هيرست يكتبها ارثر بريســبين . ولكن بريسبين نفسه قال لى ان هيرست كان أقدر كاتب للمقالات الافتتاحية فى البلاد

***

فى تلك الايام كنت أرى هيرست وماريون كثـــيرا ، لاعجابى بالحياة المجنونة التى يعيشانها . ولما كنت أملك دعوة مفتوحة لقضاء عطلة أى أسبوع فى بيت ماريـــون الساحلى ، فاننى كثيرا ما افدت منها .. خاصة عندمايكون دوجلاس ومارى فى أوروبا

وحدث ذات صباح ، ونحن على مائدة الافطار مع كثيرين آخرين ، ان استشارنى ماريون بشأن السيناريو الــذى سنمثله . ولكن ما قلته لم يكن على هوى هيرست . كان موضوع القصة يدور حول الانوثة . وقلت أن المرأة دائما تختار رجلها ، وان الرجال لا يملكون من الامر شيئا . ولكن هيرست كان يرى رأيا آخر :

ـ أوه . كلا . ان الرجل دائما هو الذى يختار

قلت :

ـ هذا هو ما نتصور . ولكن الذى يحدث ان فتاة ما تشير باصبعها اليك قائلة : « سآخذ هذا الرجل » .. فاذا بك قد اخذت !

قال هيرست فى ثقة :

ـ انك مخطىء تماما ..

فاستطردت أقول :

كل ما فى الأمر أن أسلوبهن يبلغ من الخفاء حد ايهامنا

بأننا نحن الذين نختار

واذا بهيرست يدق المائدة فجأة بقبضة يده ، فيقفز طقم الافطار من مكانه • ثم يصيح :

ـ كلما قلت عن شيء انه ابيض قلت انت انه اسود !

واعتقد ان وجهي عندئذ شحب قليلا • وكان رئيس الخدم بالصدفة يقدم لي القهوة في ذلك الوقت ، فرفعت اليه رأسي وقلت :

ـ ارجو ان تكلف احدا بحزم امتعتي واستدعاء سيارة تاكسي ••

ثم نهضت دون كلمة أخرى وذهبت الى صالة الرقص وبدأت أتمشى ذاهبا عائدا وقد عقد الغضب لساني

وجاءت ماريون بعد لحظة :

ـ ما الخبر يا شارلي ؟

فاختلج صوتي وأنا أقول :

ـ لا يستطيع احد ان يصيح في وجهي بهذه الطريقة ماذا يظن نفسه ؟ نيرون ؟ نابليون ؟

فاستدارت عائدة على عجل دون ان تجيب ، وغادرت الحجرة ، وبعد لحظة دخل هيرست متظاهرا بأنه لم يحدث شيء • وقال :

ـ ماذا هناك يا شارلي ؟

ـ ليس من عادتي ان ينهرني احد ، وخاصة حين اكون ضيفا عنده • ولهذا فانني راحل • وأنا ••

واحتبس صوتي في حلقي فلم أستطع ان أكمل جملتي ••

ففكر هيرست لحظة ، ثم بدأ هو الاخر يذرع ارض الغرفة • وأخيرا قال وصوته أيضا يرتعش :

ـ دعنا نصفي هذا الامر

وتبعته فى الصالة الى ركن فليه مقعد اثرى مزدوج من طراز « تشيبنديل » .. وجلس هيرست ــ وكان ضخما ، يبلغ طوله ١٩٠ سنتيمترا ــ ثم اشار الى المساحة الباقية من المقعد قائلا :

ــ اجلس يا شارلى .. ولنتحدث لانهاء هذا الامر ..

فجلست بجواره • ولكنها كانت « زنقة » شديدة

وفجأة ، دون ان يقول كلمة واحدة ، بسط لى يده التى تمكنت ــ برغم عجزى عن الحركة فى المقعد ــ ان اصافحها . ثم شرع يفسر ما حدث بصوت ما يزال يرتعش :

ــ أتعرف يا شارلى ؟ الحقيقة اننى لا أريد أن تمثل ماريون هذا السيناريو . وهى تحترم رأيك . فلماذا وافقت أنت عليه ؟. حسنا ، ربما كان هذا هو ما جعلنى أضيق بك بعض الشىء

فذابت مقاومتى على الفور ، واسرعت اتلطف مصمما على ان الخطأ كله كان خطئى . وكمجاملة أخيرة تصافحنا مرة ثانية ، ثم شرعنا ننهض فاذا بنا محشوران فى المقعد العتيق الذى بدأ يئن منذرا بالانهيار • ولم نستطع الابعد محاولات متعددة أن نحرر أنفسنا أخيرا ، دون أن يصيب المقعد سوء ..

ويبدو أن ماريون بعد أن تركتنى ذهبت راسا الى هيرست وعنفته على جلافته وطلبت منه أن يجىء ويعتذر لى • وكانت ماريون تعرف كيف تختار لنفسها اللحظة المناسبة ، ومتى يجب عليها أن تسكت . وكانت تقول :

ــ اذا جاءته احدى نوباته الشريرة هبت العاصفة كأنها الرعد !

كانت ماريون سيدة مرحة ، جذابة • وكانت ــ حين

تقتضى اعمال هيرست ان يذهب الى نيويورك ــ تجمع اصدقاءها فى بيتها فى تلال بيفرلى « قبل اقامة البيت الساحلى» فنسهر معها جميعا الى ساعة متأخرة. ثم يرد رودلف فالنتينو بسهرة مماثلة فى بيته . ثم أفعل أنا نفس الشىء فى بيتى . وفى بعض الاحيان كنا نستأجر سيارة أوتوبيس ونشحنها بالزاد ، ونستأجر عازفا على « الكونسرتينا » ، ونذهب باعداد تبلغ العشرين الى شاطىء ماليبو ، حيث نشعل نارا ونسهر حولها فى منتصف الليل . .

وفى معظم الاحيان كانت « لويلا بارسونز » ــ المحررة فى صحف هيرست ــ تأتى معنا ، يصحبها هارى كروكر الذى أصبح فيما بعد مساعدى فى الاخراج . ولم نكن نعود الى بيوتنا من أمثال هذه الرحلات قبل الرابعة اوالخامسة صباحاً . وعندئذ تقول ماريون موجهة حديثها الى لويلا :

ــ اذا سمع هيرست بهذا ، فان واحدة منا ستفقد وظيفتها . ولن تكون هذه الواحدة أنا

وبينما نحن ذات مساء فى سهرة عشاء فى بيت ماريون اذ بهيرست يتصل من نيويورك تليفونيا . وعادت ماريون بعد المكالمة ثائرة تقول بانفعال :

ــ تصوروا ! ان وليم هيرست يضعنى تحت المراقبة !

ذلك ان هيرست قرأ عليها فى التليفون تقريرا من مخبر سرى عما فعلته منذ سفره ، وكيف أنها غادرت بيت « ا » فى الرابعة صباحا ، وبيت « ب » فى الخامسة وهكذا .. وقالت لى ماريون فيما بعد ان هيرست قادم فورا الى لوس انجلس لتصفية كافة أعماله معها ، وانهما سيفترقان. وكانت بالطبع ثائرة لانها لم تفعل شيئا أكثر من تسلية نفسها بين أصدقاء . ومع أن التقرير كان صحيحا فى

وقائعه ، فانه كان مشوها بحيث يعطى ايحاء خاطئا

وابرق هيرست من كانساس سيتى يقول :

« غيرت رأيى ولن أعود الى كاليفورنيا لاننى لا أحتمل العودة الى الاماكن التى عرفت فيها الكثير من السعادة فى الماضى • ولهذا فأنا عائد الى نيويورك » ••

ولكنه سرعان ما أرسل برقية أخرى بعد ذلك يقول فيها انه على وشك الوصول الى لوس انجلس

وعندما عاد هيرست ، كانت لحظة حرجة بالنسبة الى كل من لهم صلة بالموضوع . ولكن المقابلة بينهما كان لها أثر طيب ، انتهى الى احتفال ضخم للترحيب بعودة هيرست الى تلال بيفرلى

وأقامت ماريون قاعة مؤقتة للطعام فى بيتها المستأجر، تتسع لمائة وستين ضيفا •• مؤثثة ، ومضاءة بالكهرباء ومزودة بحلبة للرقص • وما كان على ماريون الا ان تدعك المصباح السحرى ليتم كل شىء

وفى ذلك المساء ظهرت ماريون بخاتم جديد من الزمرد ثمنة ٧٥ الف دولار ، هدية من هيرست . ولم يفقد أحد ــ بالمناسبة ــ وظيفته !

كثيرا ما كنا ــ من باب التغيير ــ نقضى عطلة الاسبوع فى يخت هيرست وبيت ماريون الساحلى. فنبحر باليخت الى كاتالينا أو نتجه جنوبا الى سان دييجو

وكانت رحلة من هذه الرحلات هى التى اضطررنا أثناءها الى أن نترك على الشاطىء « توماس اينس » الذى تولى شئون افلام هيرست العالمية . ومع اننى لم أكن حاضرا بنفسى فى هذه الرحلة ، فان الينور جلين ــ التى كانت حاضرة ــ أخبرتنى بما حدث • وقالت لى ان اينس كان فى ذلك اليوم مبتهجا ، مرحا . ثم فجأة اصابه أثناء

الغداء ألم قاصم ، واضطر أن يترك المائدة • وأعتقـــــــد الجميع أنها نوبة من سوء الهضم . ولكن حالته زادت سوءا ، وبدأ أن الاصوب هو انزاله الى الشاطىء ليدخل احد المستشفيات . وهناك اتضح انه مصاب بنوبة قلبية وأعادوه الى بيته فى تلال بيفرلى •• حيث أصابته نوبة أخرى بعد ثلاثة أسابيع ومات

وبدأت شائعات السوء تنتشر مرددة أن اينس ضرب بالرصاص ، وان هيرست له علاقة بالموضوع . وقد كانت هذه الشائعات غير صحيحة على الاطلاق . وأنا أعرف ذلك لانني ذهبت مع هيرست وماريون لزيارة اينس قبل أن يموت بأسبوعين ، وكان مسرورا جدا بلقائنا ، ومؤمنا بأنه سيشفى بسرعة

على أن وفاة اينس احدثت ارتباكا فى خطط افــــلام هيرست العالمية ، الى حد أن « اخوان وارنر » اســــتولوا عليها • ثم انتقلت بعد ذلك بعامين الى « مترو جولدوين ماير » حيث أقيمت لماريون حجرة ملابس فاخرة ، كنت أسميها التريانون

من هذه الحجرة كان هيرست يدير معظم اعمــــاله الصحفية • وكثيرا ما رأيته جالسا فى منتصفها وقد بسط على الارض حوله عشرين صحيفة أو أكثر ، وراح يمر بعينيه على عناوينها الكبيرة ، ويقول مشيرا الى احداها :

ـ ذلك عرض ضعيف

ثم يشير الى غيرها :

ـ ما الذى جعل فلان يختار هذه القصة ؟

ثم يلتقط احدى المجلات ، ويفر صفحاتها بين أصابعه ، ويزن ثقلها بيده قائلا :

ـ ماذا جرى لاعلانات « رابوك » ؟ انها قليلة جدا هذا



شارلى شابلن يمارس هوايته المفضلة : صيد السمك

الشهر . أبرق الى « راس لونج » أن يحضر هنـــا على الفور ..

ثم تدخل ماريون فى وسط هذا المشهد ، وهى فى اتم زينتها ، عائدة من البلاتوه .. فتمشى عامدة بطريقتهـــا المختالة فوق الصحف وهى تقول :

ـ تخلص من كل هذه الزبالة . انهـــا تزحم غرفة ملابسى !

الفصل العاشر

إينيشتاين

* نظرية النسبية ولدت أمام أصابع البيانو !

* قالت ماريون للعالم العبقرى :

لماذا لاتحلق شعر رأسك ؟..

لم أستطع أن أفسر أبدا عواطف هيرست المعـــادية للانجليز . فقد كانت له املاك ضخمة فى انجلترا ، وكان يحصل منها على أرباح كبيرة

والواقع ان ميول هيرست الالمانية يعود تاريخهـا الى الحرب العالمية الاولى ، حين كادت صـــداقته وعلاقاته بالسفير الالمانى الكونت برنستروف تؤدى فى ذلك الوقت الحرج الى فضيحة . ولم يستطع حتى نفوذ هيرست الهائل أن يسكت هذه الفضيحة الا بصعوبة

كذلك كان المحرر الامريكى للشئون الخارجية فى صحف هيرست ـ كارل فون ديماند ـ يكتب دائما فى اتجـــاه ألمانيا • وظل يفعل ذلك الى ما قبل الحرب العالميـــــة الثانية مباشرة

وزار هيرست ألمانيا أثناء جولته فى أوربا ، وتقـــابل مع هتلر . ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يعرف الكثير عن معسكرات الاعتقال الهتلرية •• التى ظهرت أول معلومات عنها فى مقالات كتبها صديقى كورنيلياس فاندربلت • اذ تمكن من الدخول فى أحد هذه المعســكرات بحجة ما ، ثم كتب عن اساليب التعذيب النازية . ولكن قليلا من الناس هم الذين صدقوا ما كتبه ، بسبب ما انطوت عليه قصصه من صور الوحشية المنحطة المذهلة

وقد أرســل لى فاندربلت سلسلة من صور الكارت بوستال ، يظهر فيها هتلر أثناء القاء خطبه . وكان وجهه

مضحكا بلا جدال .. أقرب الى أن يكون تقليدا رديئا لى بشاربه الغريب ، وشعره الليفى ، وفمه الضئيل الذى يثير الاشمئزاز . والواقع أننى لم استطع ان احمل هتلر على محمل الجد ، كانت كل صورة له تظهره فى وضع مختلف : فيداه فى احداها تبدو ذات مخالب تنهش الجماهير وفى الاخرى تبدو احدى يديه مرتفعة الى أعلى والاخرى منخفضة الى أسفل كأنه أحد لاعبى الكريكت على وشك ضرب الكرة ، وفى الثالثة تبدو يداه مطبقتين كأنما يرفع بهما ثقلا حديديا وهميا . أما التحية التى يؤديها بيده مقلوبة الى الوراء فوق كتفه ، فكانت تثير فى نفسى الرغبة فى ان أضع له فى هذه اليد صينية مليئة بالاطباق المتسخة !

وكنت أقول لنفسى :

ــ هذا رجل أحمق

ولكن .. عندما أرغم اينشتين وتوماس على مغادرة المانيا ، لم يعد وجه هتلر طريفا عندى ، انما كالحا وكئيبا ..

قابلت اينشتين أول مرة فى عام ١٩٢٦ ، عندما جاء يحاضر فى كاليفورنيا ..

وقد كانت نظريتى دائما أن العلماء والفلاسفة قوم خياليون حالمون ، ولكن يوجهون عواطفهم فى اتجاه آخر . واذا بهذه النظرية تنطبق تماما على شخصية اينشتين . فقد كان يبدو نموذجا لسكان جبال الالب الالمانية فى اعذب حالاتهم ، وكان رجلا ودودا باشا . ومع أن سلوكه كان هادئا وديعا ، فاننى كنت أشعر انه يخفى مزاجا عاطفيا عنيفا .. وان هذا المزاج هو المصدر الذى يستمد منه طاقته العقلية غير العادية

وكان « كارل لايمل » - من استديوهات يونيفرسال - قد اتصل بى تليفونيا ليقول ان البروفسور اينشستين يحب ان يرانى . فهزنى السرور لذلك . والتقينا فى أستديوهات يونيفرسال لتناول الغداء ..

كان هناك البروفسور ، وزوجته ، وسكرتيرته هيلين دوكاس ، والاستاذ المساعد له والتر ماير . وكانت مسز اينشتين تتقن الحديث باللغة الانجليزية ، أفضل من البروفسور فى الواقع . وكانت سيدة بدينة ، ذات حيوية فائقة .. تعبر بصراحة عن سرورها بأن تكون زوجة الرجل العظيم ، ولا تبذل أدنى جهد لاخفاء ذلك . فكان حماسها يجعلها قريبة من القلب ..

وعندما بدأ المستر لايمل - بعد الغداء - يقودهما فى جولة حول الاستديو ، انتحت بى مسز انيشتين جانبا وهمست :

- لماذا لا تدعو الاستاذ الى بيتك ؟ اننى واثقة من انه سيسر كثيرا بتبادل حديث هادىء فيما بيننا نحن ..

وهكذا كان يجب - كما طلبت مسز اينشتين - أن تكون الدعوة محدودة . فلم أدع غير صديقين اخرين ..

وعلى مائدة العشاء روت لى قصة الصباح الذى الهم فيه أينشتين نظرية النسبية

« نزل الدكتور فى ثياب النوم كعادته ليتناول الافطار . ولكنه لم يلمس شيئا من الطعام . فخيل لى انه يشكو من شىء ما ، وسألته ماذا به ، فقال :

- عزيزتى .. ان عندى فكرة رائعة !

وبعد ان شرب قهوته جلس أمام البيانو وشرع يعزف ومن لحظة الى اخرى كان يتوقف عن العزف ويسجل عدة ملاحظات ثم يكرر :

ــ لدى فكرة رائعة ! فكرة بديعة !

قلت :

ــ اذن فبحق السماء قلها لى ، ولا تدعنى نهب هـــذا القلق ..

فقال :

ــ انها صعبة . وما زال على ان اعمل لاستخلاصها ..

وقالت لى مسز اينشتين انه ظل يعزف على البيـــانو ويسجل الملاحظات لمدة نصف ساعة تقريبا ، ثم صعـــد الى مكتبه فى الدور الاعلى قائلا انه لا يريد ان يقـــاطعه احد . وبقى هناك اسبوعين !

وقالت مسز أينشتين :

ــ كنت أرسل اليه طعامه كل يوم . وكان يهبـــط كلُ مساء ليتمشى وحده فى الخارج ، ثم يعود مرة اخرى الى عمله .. وأخيرا نزل من مكتبه الى ، وقد بدأ شاحبا جدا . ووضع على المائدة فرخين من الورق وهو يقـــول مرهقا : « هذه هى » ! وهكذا ولدت نظرية النسبية !

وكنت قد دعوت فى ذلك المساء الدكتوررينولدز،لشغفه الشديد بعلم الطبيعة . فوجه سؤالا الى أينشتين أثنـــاء العشاء عما اذا كان قد قرأ كتاب « تجارب على الزمن » الذى كتبه دان

وهز أينشتين راسه نفيا ، فقال رينولدز مداعبا :

ــ ان لديه نظرية طريفة عن الابعاد .. نوع من البعـــد (وتردد هنا قليلا) .. نوع من البعد المطوط ..

فالتفت لى أينشتـــين وهمس بخبث :

ــ البعـــــد المطوط ؟ فاز أيست داس (وهى تعنى بالالمانية : ما هذا) ؟

فلم يسع رينولدز الا أن يكف عن حديث الابعاد ،ومضى يسأل اينشتين عما اذا كان يؤمن بالاشباح . فاعتـــرف

اينشتين بأنه لم ير فى حياته واحدا منها ، ثم اضاف وهو يبتسم :

ـ عندما يرى اثنا عشر شخصا نفس الظاهرة فى وقت واحد .. فعندئذ فقط يحتمل ان أومن بها

وكانت الظواهر العصبية فى تلك الايام شديدة الانتشار، وتحضير الارواح يسيطر على هوليوود .. خاصة فى بيوت نجوم السينما ، حيث اعتاد محضرو الارواح آن يعقدوا الجلسات والتجارب . ولم أكن أشهد بنفسى هذه المناسبات، ولكن الممثلة المشهورة فافى برايس أقسمت لى أنها رات فى احدى جلسات التحضير مائدة ترتفع عن الارض وتسبح فى فضاء الحجرة . فلما سألت البروفسور عما اذا كان قد شهد أمثال هذه الظواهر ابتسم ابتسامة عريضة وهز رأسه ..

وسألته أيضا عما اذا كانت نظريته النسبية تتعارض مع افتراضات نيوتن ، فقال :

ـ على العكس . انها امتداد لها

وقلت لمسز اينشتين أثناء العشاء اننى أنوى أن أسافر الى أوربا بعد افتتاح فيلمى التالى ، فقالت :

ـ يجب اذن أن تأتى الى برلين وتزورنا . اننا لا نملك مسكنا كبيرا . فالبروفسور ليس غنيا . ومع أنه يملك رصيدا مفتوحا بما يزيد عن مليون دولار من مؤسسة روكفلر من أجل أبحاثه العلمية .. فانه لم يستخدمه على الاطلاق ..

وقد زرتهما فيما بعد فى برلين ، فى شقتهما الصغيرة المتواضعة . وكانت تشبه المساكن التى يمكن أن تجدها فى برونكس : حجرة جلوس ومائدة فى نفس الوقت ، مفروشة بأبسطة عتيقة مستهلكة . وأفخر ما فيها من

الاثاث البيانو الاسود الذى كتب عليه تلك الملاحظات التمهيدية التاريخية عن البعد الرابع . وكثيرا ما أتساءل اليوم عما حدث لهذا البيانو . ولعله الان فى المعهد السيمفونى ، أو فى متحف متروبوليتان . أو لعل النازى قد استخدموه كخشب للحريق

وقد لجأ آل اينشتين الى الولايات المتحدة عندما بدأ الارهاب النازى يزحف على المانيا . وتروى مسز اينشتين قصة طريفة عن سذاجة الاستاذ فى المسائل المالية . فقد كتبت اليه جامعة برنستون تدعوه ان ينضم اليها ، وتسأل عن شروطه . واذا به يحدد رقما بلغ من ضآلته أن الجامعة ردت تقول أنه مبلغ غير كاف للحياة فى الولايات المتحدة وان عليه أن يطلب على اقل تقدير ثلاثة أضعافه !

ثم زارنى آل اينشتين عندما جاءوا الى كاليفورنيا فى عام ١٩٤٧ . وعانقنى الاستاذ فى حرارة وهو يحذرنى من أنه قد اصطحب معه ثلاثة عازفين موسيقيين :

— وسنعزف لك بعد العشاء

وفى ذلك المساء كان اينشتين واحدا من فرقة رباعية تعزف لنا موزار . ومع أن قوسه لم يكن ثابتا ، وأسلوبه كان جافا الى حد ما .. فانه كان يعزف بحرارة وحيوية ، مغمضا عينيه طول الوقت ، متمايلا مع الانغام . ثم اقترح الموسيقيون الثلاثة — الذين لم يكونوا متحمسين كثيرا لاشتراكه معهم — ان يستريح قليلا ريثما يعزفون وحدهم شيئا . فتنحى اينشتين وجلس معنا ينصت . ولكنه بعد أن عزفوا عدة مقطوعات تحول نحوى وهمس :

— متى أعزف مرة اخرى ؟

أما مسز اينشتين ، فانها بعد انصراف الموسيقيين تحولت تؤكد لزوجها وهى متحمسة :

— لقد عرفت أفضل منهم جميعا ! ..

وبعد ذلك بعدة أيام دعوت آل اينشتين الى العشاءمرة أخرى مع مارى بيكفورد ، ودوجلاس فيربانكس ، وماريون ديفيز ، ووليم هيرست . وجلست مسز اينشتين بجوار هيرست . وكان يبدو أن كل شيء يسير سيرا حسنا قبل الطعام : فهيرست كان ودودا واينشتين كانمهذبا. ولكننى مع مضى الوقت بدأت الاحظ جوا من الجمود الباردبزحف بينهما حتى لم يعودا يتبادلان كلمة واحدة . وبذلت كل ما فى وسعى لاحياء الحديث ، فلم تجد اية وسيلة . وساد الصمت حجرة الطعام ، وراح هيرست يحملق فى تعاسةفى طبق الحلوى أمامه ، والبروفسور يبتسم فى هدوء وهو غارق فى أفكاره ..

وكانت ماريون - بطريقتها العابثة - توزع التعليقات والمداعبات على الجميع ما عدا اينشتين .. ولكنها فجأة تحولت اليه وصاحت :

- هالو ! ..

ثم دقت بأصبعها على رأسه قائلة :

- لماذا لا تحلق شعرك ؟

فابتسم اينشتين . ورأيت انا أن الوقت قدحانلمغادرة المائدة ، والانفضاض الى حجرة الجلوس لتناول القهوة

***

جاء المخرج الروسى ايزنشتاين الى هوليوود مع مساعديه ، ومنهم جريجور الكسندروف ، وشابانجليزى صديق لايزنشتاين .. اسمه ايفور مونتاجو . وكنت أراهم كثيرا ، وكانت عادتهم أن يلعبوا التنس عندى لعبا بالغ الرداءة .. أو على الاقل هكذا كان يلعبالكسندروف

وكان ايزنشتاين قد جاء لاخراج فيلم لحساب شركة بارامونت ، وقد سبقته السمعة الطيبة لفيلم « بوتمكين»،



شارلى شابلن وزوجته أونا

« وعشرة أيام هزت العالم » .. فرأت باراموونت أنه سيكون عملا مربحا أن نتعاقد معه على أن يكتب بنفسه السيناريو ويخرجه . فكتب سيناريو بعنوان « ساترز جولد » ،وكان عملا مأخوذا عن وثيقة هامة عن الايام الاولى لولاية كاليفورنيا .. ولم تكن فيه أية دعاية ، ولكن لما كان ايزنشتاين من روسيا فقد تخوفت منه باراموونت ، ولم يتم اخراجه

وقد سألت ايزنشتاين يوما ـ ونحن نتناقش حول الشيوعية ـ عما اذا كان يؤمن بأن العامل المثقف يتساوى عقليا مع الارستقراطى المستند الى تراث أجيال من الثقافة . ويخيل لى انه دهش لجهلى . وقال لى ، هو الذى جاء من الطبقة الوسطى الروسية ، من عائلة من المهندسين :

ـ عندما تتثقف الجماهير فان طاقتها العقلية تشبه فى خصوبتها الارض البكر الغنية

وقد كان فيلم ايزنشتاين « ايفان الرهيب » ـ الذى رأيته بعد الحرب العالمية الثانية ـ قمة الافلام التاريخية جميعا . فهو قد عالج التاريخ بروح شاعرية .. وهى طريقة ممتازة لمعالجته . فالتاريخ كما هو لا يثير فى نفسى غير السخرية ، خاصة كلما تذكرت الى أى حد شوهت حتى الأحداث القريبة . أما المعالجة الشاعرية فانهاترسم صورة عامة لروح العصر . وفوق ذلك فانك لتجد فى الاعمال الفنية من الحقائق والتفاصيل الصادقة أكثر مما تجد فى كتب التاريخ !

الفصل الحادى عشر

ميلاد السينما الناطقة

* تحديث الأفلام الناطقة بفيلم صامت
* وكسب الفيلم نصف مليون دولار فى عرضه الأول!

بينما أنا فى نيويورك .. اذا بصديق يخبرنى بأنه قد شهد عملية لتوفيق الصوت مع الافلام ، ويتنبأ بأن ذلك سوف يحدث ثورة فى صناعة السينما كلها عن قريب ..

ولم أعد الى التفكير فى المسألة مرة أخرى الا بعد شهور عندما انتج أخوان وارنر أول مشهد ناطق لهم . وكان جزءا من فيلم زاخر بالازياء ، تظهر فيه ممثلة جميلة جدا . لا داعى لذكر اسمها . وهى تعالج فى صمت اشجان حزن عظيم ، وتنطق عيناها الواسعتان بألم يتجاوز فصاحة شيكسبير . ثم فجأة ، اقتحم الفيلم عنصر جديد .. صوت كالذى كان يسمعه الانسان حين يضع على أذنه محارة . ثم تكلمت الاميرة الفاتنة كما لو كان صوتها ينساب من خلال الرمال :

ـ سأتزوج من جورج ، ولو كان ثمن ذلك التنازل عن العرش ..

وكانت صدمة رهيبة ، لان الاميرة الى ما قبل هذه اللحظة كانت تهز عواطفنا . ومع استمرار عرض الفيلم كان الحوار يزداد اثارة للضحك ، ولكن ليس كالمؤثرات الصوتية . فقد كان يخيل لى حين تدور أكرة باب الخدم أن أحدا قد علق تروس محراث ميكانيكى ، واذا أغلق الباب فان صوته كان يبدو كصوت اصطدام عربتين محملتين بالخشب . ذلك أنهم فى البداية لم يكونوا يعرفون شيئا عن التحكم فى الصوت : فالفارس المدرع الموفد فى مهمة يضج

كمصنع صلب ، وصوت أسرة تتناول غـذاءها البسـيط يبدو كفترات الزحام فى مطعم شعبى وانسكاب الماء فى الكوب تصدر عنه نغمة مميزة ترتقى السلم الموسيقى الى (فا) العاليـــة

وخرجت من السينما فى ذلك اليوم مؤمنـــا بأن أيام الصوت معدودة

ولكن ما كاد يمضى شـــهر بعد ذلك حتى انتجت مترو جولدوين ماير (لحن برودواى) وكان فيلما موسـيقيا ناطقا ـ وسخيفا فى الوقت نفسه ـ ولكن نجاحه فى شباك التذاكر كان مذهلا · فكانت هذه شرارة البدء · وبين يوم وليلة راحت كل دار للسينما تبرق طالبة أجهزة الصـــوت

وبدأ يأفل نجم الافلام الصامتة وهو أمر مؤسف حقا لانها كانت قد بدأت تتحسن . فالمخرج الالمانى (مورفــو) كان قد استخدمها بطريقة معبرة فعالة ، كما بدأ بعض مخرجينا الامريكيين يفعلون مثله . والفيلم الصامت الجيد يستطيع أن يخاطب المثقفين والعامة جميعا فى كافة انحاء العالم . والآن كان علينا أن نفقد كل ذلك

على اننى كنت مصمما على الاستمرار فى انتاج الأفلام الصامتة ، لايمانى بأن المجال يتسع لمختلف الوان التسلية. وبالاضافة الى ذلك فقـــد كان فنى هو التقليد الحركى وكنت فيه متفردا .. بل كنت ـ ولا داعى للتواضـــع الزائف ـ أستاذا . وهكذا مضيت قدما فى انتاج فيــلم صامت جديد ·· أضواء المدينة ··

ومع أن كل عمل جديد أقوم به كان فيما مضى يثــير اهتمام المنتجين فانهم هذه المرة كانوا مشغولين جدا بنجاح الافلام الناطقة وبدأت بمضى الزمن أشـــعر أننى خارج الاحداث . واعتقد أننى قد انتهيت

حتى (جوتشنيك) الذى سبق ان صرح علنابكراهيته للافلام الناطقة لم يلبث أن انحاز الى صفها . واصبح يقول لى :
ـ اخشى ان تكون الافلام الناطقة قد ولدت لتعيش يا شارلى :
ثم يؤيد كلامه بدعوى ان شابلن وحده هو الذى يستطيع أن يقدم فيلما صامتا ناجحا . وهى دعوى تنطوى على تقريظ لى ، ولكنها لم تكن تريحنى .. فما كنت أرغب أن أكون النصير الوحيد للسينما الصامتة . كما لم يكن مما يطمئننى أن اقرأ مقالات الصحف التى تعبرعن الشكوك والتخوفات حول مستقبل شارلى شابلن فى صناعة السينما

على أن (أضواء المدينة) كان فيلما صامتا نموذجيا، فلم يكن هناك ما يمكن أن يصرفنى عن اتمامه . غير اننى كنت بذلك أواجه أكثر من عقبة . فمنذ ظهور السينما الناطقة ـ التى كان عمرها قد بلغ الآن ثلاث سنوات ـ نسى الممثلون الاداء الصامت . وانصب كل اهتمامهم على الكلام بدلا من الحركة . وكانت صعوبة اخرى أن أعثرعلى فتاة يمكن ان تبدو عمياء دون أن ينقص ذلك من جمالها. فمعظم المتقدمات للدور كن ينظرن الى أعلى ، كاشفات عن بياض عيونهن ، بطريقة تثير الالم . على أن الحظ فى النهاية خدمنى . اذ ذهبت يوما أتفرج على جماعة من الممثلين يعملون على شاطىء سانتا مونيكا ، وكان بينهم عددكبيرمن الحسناوات فى ثياب البحر ، ولوحت لى واحدة منهن سبق أن التقيت بها ، وهى فيرجينيا شيريل وقالت :
ـ متى سأعمل معك ؟
ولم يكن قوامها الرشيق فى ثوب الاستحمام يوحى

بامكان قيامها بدور ذى شفافيةروحية كدور الفتاةالعمياء.
ولكننى بعد تجربة او تجربتين مع ممثـــلات أخريات ،
دعوتها بدافع اليأس وحده الى الحضور . ولدهشـــتى
وجدت انها تملك القدرة على الظهور بمظهر العميـــاء .
وطلبت منها ان تنظر نحوى بحيث تخترقنى نظرتها ،دون
أن ترانى ، فاذا بها تستطيع

وكانت مس شيريل جميلة ، وصالحة للتصوير ، ولكن
خبرتها بالتمثيل كانت محدودة . وهذه فى بعض الاحيان
ميزة ، وخاصة فى الافلام الصامتة حيث (التكنيك) له
الاهمية الكبرى . فالممثلات ذوات الخبرة يجمدن أحيـانا
على طابعهن الخاص . والحركة فى التمثيل الصامت حركة
آلية الى حد يسبب لهن الارتباك . اما ذوات الخبـــرة
القليلة ، فانهن اكثر استعدادا للتدرب على هذه الحركة
الآليـــة

واستغرق اعداد أضواء المدينة عاما كاملا ، اذ كنت
قد وصلت الى حالة عصبية من الاصرار على الكمـــال .
على اننى أتممته أخيرا ولم يبق الا تسجيل الموسيقى .
وكان من حسن الحظ ـ فيما يتعلق بالصـــوت ـ ان
الموسيقى يمكن التحكم فيها

وكتبت موسيقى الفيلم بنفسى . وبعد أن تم ضبطها على
الفيلم أصبحت متلهفا الى أن أعرف مصيره . فذهبنــا
نعرضه عرضا تجريبيا ـ دون اعلان سابق ـ فى احدى
دور السينما فى المدينة

ذهبت الى نيويورك فى اليوم التالى دون ان انتظـــر
تعليقات الصحف ، اذ لم يكن باقيا على موعد الافتتاح ،
غير أربعة ايام ..

وما كدت اصل حتى اكتشفت ـ لفرط الـــذعر ـ ان

الفيلم لم يعلن عنه تقريبا ، الا فى حدود سطور تقليدية تقول : « صديقنا القديم يعود الينا مرة اخرى » ‧‧ وغير ذلك من الجمل التافهة ‧ فأسرعت أعلن التعبئة العامة بين موظفينا في « الفنانين المتحدين » قائلا لهم :

ـ دعوا العواطف جانبا ‧ اعطوهم معلومات وحقائق ‧ اننا سنفتتح الفيلم فى دار غير مطروقة

وحجزت اعلانات بحجم نصف الصفحة بعشرتها يوميا فى اكبر صحف نيويورك ، تقول بحروف بنفس هذا الحجم :

« شارلى شابلن ‧‧ بسينما كوهان فى ‧‧ أضواء المدينة عرض مستمر طول اليوم ‧‧ الاسعار نصف دولار، ودولار ‧‧ »

وأنفقت على اعلانات الصحف ثلاثين ألف دولار ، ثم استأجرت لافتة نيون على واجهة السينما تكلفت ثلاثين الفا اخرى ‧ ولما كان الوقت ضيقا ، وعلينا ان نتعجل فقد بقيت مستيقظا طول الليل أجرب آلات العرض ، واقرر حجم الصورة ، واصحح التشويه ‧ وفى اليوم التالى استقبلت رجال الصحافة ، وشرحت لهم الاسباب والاهداف التى دعتنى إلى اخراج فيلم صامت ‧‧

وكان موظفو « الفنانين المتحدين » متخوفين من الاسعار التى حددتها للدخول ‧ فقد جعلتها ما بين دولار ونصف دولار ، بينما كافة دور السينما التى تقدم عروضا اولى تحدد اسعارها ما بين ٣٥ و ٨٥ سنتا ‧‧ وتعرض افلاما ناطقة يسبقها استعراض صاخب ‧ ولكن موقفى كان مختلفا ان فيلمى صامت ، مما يستدعى رفع أسعاره ‧ واذا كان الجمهور يرغب فى مشاهدته فان الفرق بين الخمسة والثمانين سنتا وبين الدولار لن يمنعهم ‧

وعلى هذا فقد رفضت المساومة ..

وحقق الفيلم فى ليلة الافتتاح نجاحا طيبا جدا . ولكن حفلات الافتتاح لا دلالة لها . وانما الجمهور العادى هو الذى يهم . فهل ياترى سيثير اهتمامه فيلم صامت ؟

أبقتنى هذه الافكار مؤرقا نصف الليل . ولكننى فى الصباح فوجئت بمدير دعايتى يوقظنى وقد اقتحم الحجرة فى الحادية عشرة صباحا وهو يصرخ فى قمة الانفعال :

ـ فعلتها يا جدع ! يا لها من قنبـــلة ! ان طابورا من الناس يقف ملتفا حول القطاع كله منذ العاشرة صباحا ، والمرور معطل . وهناك حوالى عشرة من العساكر يحاولون حفظ النظام . وقتال من أجل التذاكر . وآه لو سمعتهم وهم يتصايحون !

فتسلل الى نفسى احساس من السعادة والاسترخاء وأمرت بافطارى ، ثم لبست ثيابى ، وقلت :

ـ قل لى أين كانت أعلى الضحكات

فقدم وصفا تفصيليا للمواقف التىضحكوا فيها والتى قهقهوا ، أو صرخوا ، عندها . ثم قال :

ـ تعال وانظر بنفسك ..

سينزل بردا على قلبك ..

وعلى اننى لم أر الا نصف ساعة من الفيلم . واقفا مع الزحام عند مؤخرة الصالة ، فى جو من السرور الحماسى الذى يقاطعه بين وقت وآخر انفجـــــارات من الضحك الصاخب .. وكان هذا كافيا . فخرجت راضـــيا عن نفسى ، ونفست عن مشاعرى بالمشى فى طول نيويورك وعرضها لمدة اربع ساعات . وبين فترة واخرى كنت امر أمام دار السينما وأرى الطابور المتصل الدائر حـــــول المبنى ..

ونال الفيلم ايضا تعليقات اجماعية حماســـــية من النقاد ..

وظللنا ثلاثة اسابيع ـ فى هذه الدار المزودة بالف ومائة وخمسين مقعدا ـ نحصل على ٨٠ الف دولار كل اسبوع بينما لم تحصل سينما بارامونت المواجهة لنا ، والتى تتسع لثلاثة الاف متفرج ، وتعرض فيلما ناطقا ، ويظهر فيها موريس شيفالييه بشخصه ، الا على ٣٨ الف دولار فى نفس الاسبوع

واستمر عرض اضواء المدينة اثنى عشر اســـبوعا ، فحقق بذلك ـ بعد خصم كافة التكاليف ـ ربحا صافيا يزيد على ٤٠٠ ألف دولار . ولم نتوقف عن عرضــــه الا استجابة لطلب احدى شركات دورالعرض، التى استأجرت الفيلم بسعر طيب جدا

وعزمت عندئذ على الذهاب الى لندن وافتتاح أضواء المدينة هناك . وكنت وأنا فى نيويورك أقابل كثيرا صديقى رالف بارتون ، وهو أحد رؤساء تحرير « النيويوركر » . وكان رجلا فى السابعة والثلاثين من عمره ، مرهف الذوق، متطرفا ، تزوج خمس مرات . وقد أصابته مؤخرا حالة من الانهيار النفسى ، وحاول الانتحار بأخذ جرعة كبــــيرة من دواء ما . فاقترحت عليه أن يأتى معى ، ضيفا على ، حتى يفيده تغيير الجو ..

وهكذا سافرنا معا على ظهر الباخرة « أوليمبيك » نفس الباخرة التى سافرت عليهـــــا الى انجلترا فى الرحلة الاولى ..

كانت هذه الزيارة الثانية مثيرة ، ومنشطة للنفس . كالزيارة الاولى . ولكنها كانت بلا شك أكثر أهمية : اذ كان

من حظي فيها أن التقى بعدد أكبر من الشخصيات الهامة ..

اتصل بنا السير فيليب ساسون ، ودعاني أنا ورالف الى عدد من ولائم العشاء في بيته في بارك لين ، وفي مقره الريفي في ليمبن . كما تناولنا الغذاء معه أيضا في مجلس العموم ، حيث التقينا في الممر بالليدي آستور

وبعد ذلك بيوم أو يومين دعتنا الليدي الى الغداء معها في مسكنها بميدان سانت جيمس ، رقم ١٠ وما كدنا ندخل قاعة الاستقبال حتى أحسست بأننا قد دخلنا صالون المشاهير عند مدام توسو - فقد وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام برنارد شو ، وجون ماريان كينيس ، ولويد جورج ، وكثيرين آخرين .. بلحمهم ودمهم . وحافظت ليدى آستور على حيوية الحديث ببديهتها الخصبة التي لا تتخلى عنها ، الى أن استدعيت الى خارج القاعة ، فساد على أثر خروجها صمت محير . ولكن برنارد شو أسرع يحل محلها ، وروى نادرة طريفة عن «دين انج» الذى قال تعبيرا عن استيائه من تعاليم القديس بولس :

- لقد شوه تعاليم راعينا حتى لكأنه أعاد صلبه مقلوبا، برأسه الى أسفله !

وقد كانت هذه العذوبة من جانب شو ، وعبقريته في الابقاء على السهرة حية ، من أكبر أسباب جاذبية وحب الآخرين له

وبعد ذلك بيوم أو بيومين تناولنا الغداء عند برنارد شو نفسه . وصحبني شو بعد الغداء الى حجرة مكتبه ، تاركين ليدى آستور والآخرين في قاعة الجلوس

وكانت الحجرة مضيئة مشرقة ،تطل على نهر التيمس. وما كدت أدخل حتى وجدت أمامي رفا فوق المدفئة يحمل

مؤلفاته • ولما كنت قد قرأت القليل من أعمال شو ، فقد صحت متعجبا كأى أبله وأنا اتجه الى الرف :

ـ أوه ! كل أعمالك !

وعندئذ خطر ببـــالى انه قد يكون دبر هذه الفرصة لاستكشاف عقلى عن طريق مناقشة مؤلفاته • وتصـورت نفسى وقد اشتبكت معه الى حد يجعل الضيوف يتـدخلون لوقف المناقشة • ولكم كنت أحب أن يحدث شىء كهذا ! ولكن الذى حدث بدلا من ذلك هو أن الصمت ساد لحظة، بينما استدرت أنا أفحص الحجرة ، وعلقت تعليقا ساذجا على اشراقها •• ثم عدنا ننضم الى باقى الضيوف

وقد التقيت بمسز شو عدة مرات بعد ذلك • وما زلت أذكر مناقشة بينى وبينها حول مسرحية شو « عـــربة التفاح » •• التى لم تحظ باكتراث كبير من جانب النقاد • فقد كانت مسز شو ثائرة جـدا لهذا السبب ، وقالت لى:

ـ لقد طلبت من شو ألا يكتب أية مسرحيات أخرى • فالجمهور والنقاد لا يستحقون مسرحياته !

الفصل الثانى عشر

فى إنجلترا

* برنارد شو فى بيته
* أيام مع تشرشل
* ومقابلة مع غاندى

ظللنا ثلاثة أسابيع مشغولين بدعوات مستمرة ، احداها من رئيس الوزراء ، رامزى ماكدونالد ، وأخرى من ونستون تشرشل ، وأخريات من لارى ستور ، وسير فليب ساسون .. الى آخر سلك العائلة المالكة ..

وقد كانت أول مرة قابلته فيها ونستون تشرشل فى بيت ماريون ديفيز الساحلى .وكان نحو خمسين ضيفا يذهبون ويجيئون بين قاعة الرقص وقاعة الاستقبال عندما ظهر هو على عتبة الباب مع هيرست ، ووقف على طريقة نابليون واضعا يده فى الصديرى يتأمل الراقصين .وكان يبدو عليه أنه تائه فى غير مكانه . ورآنى هيرست فأومأ لى ان اقترب ، ثم قدمنى اليه

كان خلقه ودودا وحاسما . وتركنا هيرست فظللنا بعض الوقت نتبادل الجمل التقليدية والناس يموجون من حولنا. ولم يتألق تشرشل الا عندما تطرقت بالحديث الى وزارة العمال البريطانية وقلت :

ـ الذى لا أفهمه فى انجلترا هو ان انتخاب حكومة اشتراكية فيها لا يغير شيئا من وضع الملك أو الملكة

فعندئذ رمانى بنظرة سريعة ، متحديه ، يشوبها ظل من الدعابة .. وقال :

ـ بالطبع لا

ـ كنت أظن أن الاشتراكيين معارضون للملكية ..

فضحك قائلا :

ـ لو كنت فى انجلترا لقطعنا راسك جزاء على هـــذه الملاحظة !

والآن وقد صرنا فى انجلترا فقد دعانى المسترتشرشل ـ انا ورالف ـ الى « تشارتويل » لقضاء عطلة الاسبوع. ووصلنا الى هناك بعد رحلة مريرة فى طقس بارد

وتشارتويل بيت قديم ، أثاثه متواضع ، ولكن ذوقه سليم .. ويسوده جوعائلى . والحق اننى لم أعرف تشرشل على حقيقته الا فى هذه الرحلة الثانية الى لندن . وكان فى هذه الفترة عضوا فى مجلس العموم

ويخيل لى أن السير ونستون رجل تمتــع بحيـــاته اكثر مما أتيح لمعظمنا . فهو قد لعب على مسرح الحياة كثيرا من الادوار فى شجاعة وتوهج وحرارة فائقة . ولم يفته الا قليل جدا من المتع فى هذا العالم . فهو رجـــل جاملته الحياة . عاشها على خير ما تكون ، وقامر فيها أخطر المقامرات ، وكسب . واستمتع بالسلطة ، ولكن لم يدعهـا ابدا تستحود عليه . واستطاع فى حياته المزدحمة ان يجد وقتا للهوايات : بناء الجدران ، وسباق الخيل ، والرسم بالزيت . وقد لاحظت فى غرفة المـائدة عنده لوحة من لوحات « الطبيعة الصامتة » على رف المدفأة . فلما رآنى أنظر اليها باهتمام شديد قال :

ـ أنا الذى رسمتها

قلت بحماس :

ـ ولكن كم هى رائعة !

ـ ليس فى الامر صعوبة . كل ماحدث هو اننى رأيت رجلا يرسم منظرا طبيعيا فى جنوب فرنسا فقلت : فى استطاعتى أن أفعل مثله ..

وفى الصباح التالى اخذنى لارى الجدران التى تحيـط

بشارتويل ، والتى بناها بنفسه . فدهشت وقلت مامعناه أن بناء الحوائط ليس سهلا كما يبدو فأجاب :

ـ سأريك الطريقة . وستفعلها فى خمس دقائق

وعند العشاء فى الليلة الاولى كان هناك عدد كبير من أعضاء البرلمان يجلسون معه ـ وكأنما هم تحت قدميه ـ وكان منهم مستر بوثباى الذى هو اليوم « لورد بوثباى » والمرحوم برندان براكن الذى صار فيما بعد «لوردبراكن» .. وكلاهما كان متحدثا ممتعا وجذابا . وقلته لهما انني سوف أقابل غاندى الذى كان فى لندن فى ذلك الوقت • فقال براكن :

ـ لقد سكتنا طويلا على هذا الرجل . والواجب أن يوضع فى السجن وان يبقى فيه .. سواء أضرب عن الطعام أم لم يضرب . فاننا سنفقد الهند مالم نكن حازمين

فقاطعتـــــه :

ـ ان وضعه في السجن أمر بسيط جدا لو انه يجدى• ولكنكم اذا سجنتم غاندى فسيظهر غيره . انه رمز لما يريده الشعب الهندى . والى أن يحصل الهنود على ما يريدون فانهم سيواصلون تقديم غاندى بعد آخر

فالتفت تشرشل نحوى وقال وهو يبتسم :

ـ أنت تصلح عضوا طيبا فى حزب العمال !

والحق أن جاذبية تشرشل تكمن فى تقبله واحترامــــه لآراء الآخرين • فهو يبدو غير حاقد على أولئـــــك الذين يختلفون معه

وبعد أن انصرف براكن وبوثباى فى تلك الليلة الاولى ، أتيح لى فى الصباح التالى أن أرى تشرشل عن كثب بين عائلته • وكان يوما من أيام الازمات السياسية ، ظل فيه لورد بيفربروك يتصل بتشارتويل تليفونيا طول النهار ،

وقوطع فيه وكان ذلك اثناء الانتخابات ، وفى قمة الازمة الاقتصادية

وكانت أوقات الطعام متعة بالنسبة لى ، اذ كان تشرشل لا يكف عن الكلام فى السياسة على المائدة ، بينما تنصت العائلة مستسلمة دون أن تبدى حراكا . وكنت اشعر أنها عادة تتكرر كثيرا ، وانهم عودوا أنفسهم عليها

وقد سحرتنى البساطة ، والذوق الاسبرطى ، فى تشارتويل . وكانت حجرة نوم تشرشل مكتبة فى نفس الوقت ، تفيض بالكتب المصطفة على الجدران الاربعة . وكان جدار منها مخصصا بأكمله لتقارير هانسارد البرلمانية . كما كانت هناك أيضا مجلدات كثيرة من نابليون. قال عنها تشرشل معترفا :

ـ نعم .. اننى من أشد المعجبين به

ثم قال :

ـ سمعت أنك مهتم باخراج فيلم عنه . يجب أن تفعل. فهناك امكانيات كوميدية عظيمة : نابليون فى الحمام وشقيقه جيروم يدخل عليه فى ثيابه الموشاة بالذهب ، محاولا أن يستغل فرصة ارتباكه ويجعله يذعن لمطالبه . ولكن نابليون يتعمد الانزلاق والسقوط فى البانيو ، فيتطاير الماء ويغمر حلة شقيقه ، بينما هو يأمره بالخروج . فيخرج كسير الفؤاد .. مشهد كوميدى رائع !

واذكر ذات يوم أننى رأيت مستر ومسز تشرشل يتناولان الغداء فى مطعم « كواجلينو » . وكان تشرشل يبدو فى جلسته كالغلام الغاضب . فاتجهت الى مائدتهما لاحييهما ، وقلت وانا ابتسم :

ـ مالك تبدو كما لو كنت تحمل ثقل العالم على كتفيك ؟

فقال انه عائد لتوه من مناقشة فى مجلس العموم ، وانه ليس راضيا عما جاء فى المناقشة بشأن المـانيا . فلما علقت على الامر تعليقا فيه دعابة ، هز رأسه وقال :

ـ أوه . كلا . ان الامر خطير . خطير جدا فى الواقع

***

قابلت غاندى بعد فترة قصيرة من اقامتىعندتشرشل وقد كنت دائما أحترم غاندى وأشعر نحوه بالاعجـاب .. لذكائه السياسى وارادته الحديدية

غير اننى كنت أرى أنه اخطأ بزيارته للنـــدن . فعلى مسرحها تبخرت هالته الاسطورية ، وفى طقس انجلترا البارد المعتم ، كان يبدوا نشازا بقطعة القماش التقليدية الملتفة حـــول خصره . وجعـــله ذلك مادة للســـخرية التافهة والكاريكاتير . والواقع أن تأثير الانسان فى نفوس الناس يكون أعمق اذا احتفظ بمسافة بينه وبينهم

وكنت قد سئلت عما اذا كنت أحب ان التقى به . فأثار ذلك شغفى الشديد . والتقيت به فى بيت صـــغير متواضع فى المنطقة الفقيرة المجاورة لشارع (ايست انديا دوك) . وكانت الجموع تزحم الشوارع ، ورجال الصحافة والمصورون يحتلون دورى البيت

وجرت المقابلة فى غرفة امامية من دار متواضعة ،تبلغ مساحتها حوالى ١٢ قدما مربعا ـ (أى حوالى متر ونصف متر) . ولم يكن المهاتما قد وصل بعد . فبدأت ـ وانا فى انتظاره ـ افكر فيما يمكن ان أقول له . وكنت قد سمعت عن سجنه ، واضراباته عن الطعام ، وكفاحه من أجل تحرير الهند . كما كنت اعرف بصورة غامضة معارضـــته لاستخدام الالات

وعندما وصل أخيرا تصاعد التهليل ، والهتافات وهـو

يهبط خارجا من التاكسى ، ويضم حول خصره ثوب القماش الذى يرتديه ..فكان غريبا فى ذلك الشارع المزدحم الفقير منظر جسمه النحيل وهو يدخل مثل هذا البيت المتواضع تزفه الهتافات المدوية

وصعد غاندى الى الدور العلوى وظهر فى النافذة أمام الجماهير ، ثم أذن لى أن أقترب ، ووقفنا معا نلوح للزحام تحتنا ..

وما كدنا نجلس معا على الكنبة حتى داهمنا وهج آلات التصوير . كنت أجلس على يمين المهاتما . وجاءت اللحظة المحرجة المخيفة التى يجب ان اقول فيها شيئا بالغ الذكاء فى موضوع لا أعرف عنه الا القليل . والى يمينى كانت تجلس فتاة شابة مصممة على أن تروى لى قصة طويلة لم اكن اسمع منها حرفا . ولكننى ظللت اهز لها رأسى مؤمنا على كلامها وأنا أفكر طول الوقت فيما ســـوف اقول لغاندى . كنت أعلم ان على ان ابدأ الحديث ، وانه ليس متوقعا من المهاتما أن يبدأ هو ويقول لى كم استمتع بفيلمى الاخير .. الخ - بل لقد كنت أشك فى أنه قد رأى أصلا أى فيلم فى حياته . على أن صوت سيدة هندية لم يلبث ان ارتفع بلهجة آمرة يقاطع الفتاة الثرثارة :

- يا آنسة .. هل تسمحين بانهاء حديثك وترك المستر شابلن يتحدث الى غاندى ؟

فســـاد الصمت فجأة فى الحجرة المكتظة . ولما كان التعبير المرتسم على ملامح غاندى يدل على الانتظار ، فقد جلوت حنجرتى ، وبدأت أقول :

- اننى بالطبع أقف بعواطفى مع امال الهند ونضالهـــا من أجل الحرية . ولكنى برغم ذلك اشعر بشىء من الحيرة بسبب نفوركم من الآلات . وأومأ المهاتما برأسه مبتسما وأنا استطرد :

– فالآلات فى نهاية الامر يمكن اذا استخدمت للصالح العام ان تساعد على تحرير الانسان من قيد العبودية . وتمنحه ساعات عمل أقل ، ووقتا لانماء عقله والاستمتاع بالحياة

فقال بهدوء :

– أفهم ذلك . ولكن على الهند قبل ان تحقق هذه الاهداف أن تخلص نفسها اولا من الحكم البريطانى . لقد جعلتنا الآلة فى الماضى تابعين لانجلترا . والطريق الوحيد لتحرير أنفسنا من هذه التبعية هو ان نقاطع كافة السلع المصنوعة آليا . وهذا هو السبب فى اننا جعلنا الواجب الوطنى على كل هندى ان يغزل قطنه ، وينسج ثوبه ، بنفسه . هذه هى طريقتنا فى الهجوم على امة بالغة القوة كانجلترا . ثم أن هناك بالطبع أسبابا أخرى . فالهند لها طقس يختلف عن انجلترا ، كما تختلف أيضا عاداتها واحتياجاتها . فالطقس البارد فى انجلترا يحتم وجود صناعة نشطة واقتصاد معقد . وبينما تحتاجون انتم الى صناعة أدوات المائدة ، نستخدم نحن أصابعنا فى الطعام وهكذا يتجسد الامر فى عديد من الفروق

وهكذا تلقيت درسا بارعا فى المناورات التكتيكية للكفاح الهندى من أجل الحرية ، مصدره – لفرط العجب – رجل واقعى ، حالم ، حاد الذهن ، يملك ارادة حديدية لتنفيذ ما يقول . وكان مما قاله لى أيضا أن أعلى مراتب الاستقلال هى التخفف من الاشياء التى لا ضرورة لها . وان العنف لا يلبث فى النهاية أن يدمر نفسه

***

وعندما خلت الحجرة من الناس سألنى غاندى عما اذا كنت أحب ان ابقى واشاهد صلاتهم . وجلس المهاتما



مشهد لشارلى شابلن فى فيلم « العصر الحديث »

على الارض وقد تعانقت ساقاه ، بينما جلس معه خمسة آخرون فى دائرة . فكان منظراً عجيباً : ستة أشخاص قابعين على الارض فى تلك الحجرة الضيقة ، فى قلب افقر احياء لندن ، بينما تغيب الشمس الصفراء بسرعة وراء اسطح المنازل .. وانا جالس على الكنبة أطل عليهم وهم يترنمون بصلواتهم فى خشوع . وكم بدا لى الامر متناقضاً وانا أرى ذلك الرجل الواقعى الى أبعد مدى ، بذهنه القانونى اللماح ، وفهمه العميق للحقائق السياسية .. يغيب ويتبدد فى ترتيلة غنائية !



الفصل الثالث عشر

هذا الكون الغامض

* مغامرات مع العفاريت !
* الرجل الذى رفع عنه الحجاب ..
* اظهرى أيتها الأرواح !
* أزمتى الكبرى : هل ينطق الصعلوك ؟

كان هـ ٠ ج ٠ ويلز ينكر على اعتقادى اننى أملك الهاما غير حسى ٠ فذكرت له حادثة يمكن أن تكون مجرد مصادفة: فقد ذهبت مرة مع لاعب التنس هنرى كوشت ، ومعنـــا صديق اخر ، الى أحد البارات فى بيارتيــز . وكان على جدران البار ثلاث عجلات للقمار ، تحمل كل منها أرقاما من واحد الى عشرة ٠ فأعلنت بطريقة مسرحية ، نصف مازحة ، اننى أشعر بقوة روحية تتملكنى ، واننى سأدير العجلات الثلاث فتقف الاولى على رقم ٩ ، والثانية على رقم ٤ ، والثانية على رقم ٧ ٠ وماذا ؟ لقد وقفت الاولى بالفعل عند رقم ٩ ، والثانية عند رقم ٤ ، والثالثة عنـــد رقم ٧ ـ فرصة واحد فى المليون !

وقال ويلز انها مجرد مصادفة ٠ فقلت :

ـ ولكن تكرار المصادفة يجعل الامر جديرا بالدراسة

ورويت له قصة حدثت لى وأنا غلام . اذ كنت مارا أمام دكان بقال فى شارع كامبرويل ، ولاحظت آن أبوابه مرفوعـــــة ـ وهو أمر غير عادى ـ فأحسست بدافع ما نحو تسلق حافة النافذة والنظر من ثقب الشيش . كان كل مافى الداخل ظلام مهجور ، ولكن البضائع جميعها كانت سليمة ، وعلى الارض بالة شحن فى وسط المحل . واذا بى أقفز عائدا وقد تملكنى احساس بالنفور ومضيت أواصل طريقى . ولم يكد يمضى وقت طويل بعد ذلك حتى

ظهرت جريمة قتل . واتضح انرجلا عجوزا فى الخامسة والستين - اسمه ادجار أدواردز - قد نهب خمسة محال للبقالة ببساطة تامة عن طريق قتل اصحابها بثقل حديدى ثم سرقة الخزانة . وكان الذى فى بالة الشحن فى ذلك المحل بشارع كامبرويل هو آخر ثلاثة من ضحاياه: مستر ومسز داربى ، وطفلهما

ولكن ويلز أبى ان يقبل شيئا من ذلك ، وقال أنه من الامور المعتادة فى حياة أى انسان أن تحدث له مصادفات كثيرة . وان ذلك لا يثبت شيئا

وانتهت مناقشاتنا عند هذا الحد

علما انه كان يمكننى ان أروى له تجربة أخرى ، وقعت لى عندما توقفت ذات يوم - وأنا غلام - أمام مقهى فى شارع كوبرى لندن وطلبت كوبا من الماء . فقدم لى الكوب رجل مجامل ، جذاب ، ذو شارب كثيف . ولكننى لسبب مالم استطع أن أقرب الماء . وتظاهرت بأننى أشربه الى أن تحول الرجل يتحدث الى أحد الزبائن ، فتركت الكوب ومضيت . وبعد ذلك بأسبوعين اتهم جورج شايمان، صاحب محل كراون بشارع كوبرى لندن ، بقتل خمس زوجات بسم الاستركنين . وكانت ضحيته الاخيرة تلفظ أنفاسها فى حجرة فوق المحل فى نفس اليوم الذى قدم لى فيه كوب الماء

وقد شنق بعد ذلك كل من تشابمان وادواردز

***

فيما يتعلق بحديث الغوامض والاسرار ، حدث قبل أن أبنى بيتى فى تلال بيفرلى بعام واحد أننى تلقيت رسالة يقول كاتبها انه رجل رفع عنه الحجاب ، وانه رأى فى أحد أحلامه بيتا مقاما على قمة تل ، وأمامه سهل منبسط ينتهى

الى ساحة تشبه مجداف القارب . وان لهذا البيت أربعين نافذة ، وفيه قاعة موسيقى ذات سقف مرتفع

وقال صاحب الرسالة ان موقع البيت كان ارضا مقدسة لدى قبائل الهنود الحمر ، وكانوا منذ الفى سنة يذبحون عليها ضحاياهم الادمية ، وان البيت مسكون ، ولا يجوز أن يترك بلا اضاءة • ثم قال انه ما دام هناك ضوء ، وما دمت لا انفرد بنفسى ، فانه لن تكون هناك أشباح

وصرفت النظر فى ذلك الوقت عن الرسالة باعتبار كاتبها شخصا أحمق . ولكننى احتفظت بها كشيء طريف شاذ

ولكننى وأنا أفتش فى مكتبى بعد ذلك بعامين عثرت على الخطاب ، واعدت قراءته . فاذا بالوصف الذى جاء فيه للبيت والسهل دقيق جدا • ولم أكن قد أحصيت النوافذ ، فلما قمت احصيها وجدت لدهشتى الشديدة انها أربعون بالضبط !

ومع أننى لست من المؤمنين بالاشباح الا اننى قررت أن أقوم بتجربة . وكان يوم الاربعاء هو يوم اجازة الخدم حيث يبقى البيت خاليا . فتناولت عشائى فى الخارج ، ثم عدت على الفور وذهبت الى حجرة البيانو التى كانت طويلة وضيقة كممر الكنيسة ولها سقف من الطراز القوطى . وبعد أن أسدلت الستائر اطفأت جميع الاضواء . ثم تحسست طريقى الى مقعد ذى مسندين وجلست فى صمت عشر دقائق . وارهف الظلام حواسى فبدات اتصور أشكالا تسبح أمام عينى . ولكننى فسرتها بأن ضوء القمر يتسلل من فرجة ضئيلة بين الستائر وينعكس على مطفأة للسجائر مصنوعة من الكريستال

ونهضت فأقفلت الستائر بطريقة أكثر احكاما ، فاختفت الاشكال العائمة • ثم عدت انتظر فى الظلام ••

وبقيت مايقرب من خمس دقائق . فلما لم يحدث شيء
شرعت أتكلم بصوت مسموع :

ـ اذا كانت هنـــا أرواح ، فأرجـــوكم أن تظهروا لي
دليلا !

وانتظرت بعض الوقت ، ولكن لم يحدث شيء
ثم عدت استطرد :

ـ الا توجد وسيلة للاتصال .. ؟ فلتكن أية علامة ..
مجرد نقرة . اوفليكن الاتصال من خلال عقلي اذا لم يكن
عن هذا الطريق . فليدفعني عقلي مثلا الى كتابة شيء .
او قد يكفي تيار هواء بارد للدلالة على وجودكم

ثم انتظرت خمس دقائق اخرى . ولكن لم يكن هناك
ثمة تيار هواء ، أو أية ظاهرة من اى نوع . ظل الصمت
يطبق على أذني ، وعقلي خال تماما

وأخيرا نفضت يدي من الامر كقضية خاسرة ، وأضأت
أحد الانوار . ثم ذهبت الى غرفة الجـــلوس . وكانت
ستائرها غير مسدلة ، وضوء القمر فيها يرسم امامعيني
هيكل البيانو . فجلست وشرعت أجري بأصـــابعي على
المفاتيح . وأخيرا وصلت الى نغمة سحرتني ، فمضيت
اكررها حتى رنت بهاالحجرة كلها . ما الذي يجعلنيأفعل
ذلك ؟ لعل هذه هي العلامة ! وظللت أكرر تلك النغمـــة
الواحدة . واذا بحبل من الضوء يلتف فجأة حولخصري .
فقفزت من أمام البيانو كالطلقة النارية ، ووقفت وقلبييدق
كما تدق الطبول

وعندما استعدت رباطة جأشي حاولت أن آفكر في الامر
بعقلي . كان البيانو موضوعا في نتوء من الحجرة بجـــوار
النافذة . وأدركت أن ما تصورته شريطا من الاكتوبلازم
(مادة جسم الانسان التي يقـــال آن الارواح تكتسي بها

للعيان) لم يكن الا ضوء مصباح سيارة قادمة على سفح الجبل

ولكى أقنع نفسى بذلك جلست أمام البيانو وعدت أدق نفس النغمة عدة مرات

وكان هناك ممر مظلم عند الطرف البعيد لحجرة الجلوس. ينتهى الى باب غرفة المائدة فى الجانب المقابل . واذا بى ألمح الباب بطرف عينى ينفتح ويخرج من غرفة المائدة شىء يعبر الممر المظلم .. مسخ كبير الحجم ، شكله يشبه الاقزام ، وله عينان كعينى مهرجي السيرك تحيط بها دوائر بيضاء . ورأيته يقترب نحو غرفة البيانو . ولكننى قبل أن أستدير براسى نحوه كان قد اختفى !

وعلى الفور نهضت محاولا ان أتعقبه وقد استبد بى الذعر . ولكنى لم اجد له أثرا

وعدت أعزف على البيانو وقد رسخ فى اعتقادى أن رمشا من رموش عينى قد يكون هو المسئول عن خلق هذا الوهم ، خاصة وأنا فى مثل هذه الحالة العصبية العنيفة

ولم يحدث شىء بعد ذلك ، فقررت ان أذهب الى فراشى ..

ولبست بيجامتى ، ودخلت الحمام ، وما كدت أضىء النور حتى وجدت أمامى الشبح ، جالسا فى البانيو ، ينظر الى !

ووثبت هاربا من الحمام .. وثبة أفقية ..

كان ظربانا ! « حيوان أمريكى له فرو ثمين ، يدافع عن نفسه باطلاق رائحة كريهة تطرد عنه أعداءه »

وكان هو نفس المخلوق الذى رأيته بطرف عينى قبل ذلك . كل مافى الأمر أنه بدا لى اكبر حجما فى المرة الاولى

وفى الصباح التالى وضع رئيس الخدم الحيوان المذهول فى قفص ، واستأنسناه ٠ ولكنه اختفى ذات يوم ولم نره بعد ذلك ٠٠

***

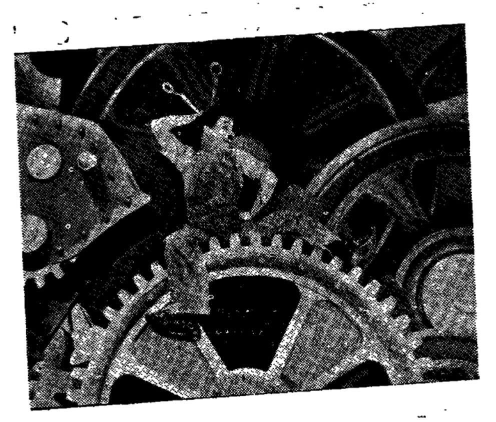
ليست العطلات ـ فى أحسن الاحوال ـ الا وقتا ضائعا. وكنت قد تسكعت طويلا فى مناطق أوروبا السياحية .. لسبب أعرفه جيدا . وهو انني كنت حائرا وبلا هدف . فمنذ ابتكار السينما الناطقة وأنا عاجز عن أن أقرر مستقبلى . ومع أن « أضواء المدينة » كان نصرا عظيما ، وحقق ربحا أضخم من اى فيلم ناطق ، الا اننى أحسست بأن اقدامى على اخراج فيلم صامت آخر سيكون بمثابة اقامة عقبات أمام نفسي . كما أنه كان يتملكنى الخوف من أن أصبح موضة قديمة . وبالرغم من أن الفيلم الصامت الجيد افضل من الناحية الفنية ، الا انه كان يجب أن أعترف بأن الصوت يجعل الشخصيات أكثر وجودا وتجسدا

وكنت أقلب فى ذهنى بين وقت وآخر فكرة اخراج فيلم ناطق ٠٠ ولكن الفكرة كانت تزعجنى ، اذكنت أدرك اننى لن أبلغ أبدا مستوى جودة أفلامى الصامتة .. وأن ذلك سيعنى التخلص كلية من شخصية الصعلوك . وكان البعض يقترحون ان أجعل الصعلوك يتكلم . ولكن التفكير فى هذا كان مستحيلا ، اذ أن أول كلمة ينطقها كانت كفيلة بأن تحوله على الفور الى شخص آخر . فالمادة الخام التى ولد منها مادة خرساء كثيابه

كانت هذه الافكار المؤلمة هى التى جعلتنى أطيل اجازتى، ولكن ضميرى ظل طوال الوقت يغمز فى :

ـ عد الى هوليوود واستأنف العمل

وعدت الى كارلتون بلندن بعد رحلتى فى الشمال ، وفى



شارلى شابلن فى فيلم « العصر الحديث »

نيتى أن أحجز مكانا للعـودة الى كاليفورنيـا عن طريق نيويورك . واذا ببرقية تصل من دوجلاس فيربانكس فى سان مورتيز ، فتتغير خططى

كانت البرقية تقول :

« تعال الى سان موريتز .. سنأمر بفرش جليد جديد لاستقبالك . أنا فى الانتظار . مع حبى . دوجلاس »

وفى سان موريتز أرسلت الى أخى سيدنى ليلحق بى . ولما لم يكن هناك ما يحتم العودة عاجلا الى تلال بيفرلى فقد قررت أن أعود الى كاليفورنيا عن طريق الشرق . ووافق سيدنى على أن يصحبنى الى اليابان ..

الفصل الرابع عشر

محاولة اغتيالى فى اليابان

* ستة أشخاص ومسدس وهمى
* حقيقة اللغز : كانوا يريدون بمقتلى اثارة الحرب !

سبق أن ظهرت كتب كثيرة عن الشرق . فلا داعى للاثقال على القارىء

على أن لى عذرا يبرر أن أكتب عن اليابان ، بسبب الظروف المعقدة التى ارتبطت بوجودى هناك

قبل أن أبدأ رحلتى الى اليابان أبدى « كونو » ـ سكرتيرى الياباني ـ رغبته فى أن يسبقنا ويمهد لوصولنا. وكنا سننزل ضيوفا على الحكومة اليابانية . وفى ميناء « كوبى » حيتنا الطائرات بالدوران فوق سفينتنا والقاء منشورات ترحب بنا ، بينما الالاف يهتفون على أرصفة الميناء ..

وكان منظر العدد الكبير من الثياب الوطنية ذات الالوان الزاهية ينعكس على صفحة الميناء الرمادية ، وتظهر من ورائه مداخن المصانع العالية ، فيبدو جميلا فى تناقضه . ولم يكن فى تلك المظاهرة اليابانية شيء من الغموض او التحفظ الذى يتحدثون كثيرا عنه . فقد كانت مظاهرة عاطفية ملتهبة ككل مظاهرة رأيتها قبل ذلك فى أى مكان

ووضعت الحكومة تحت تصرفنا قطارا خاصا ليحملنا الى طوكيو . وفى كل محطة مررنا بها كان الزحام والصخب يتزايدان ، وكانت الارصفة مكتظة باسراب من الحسان يثقلننا بالهدايا ، ويبدو منظرهن ـ وهن واقفات فى انتظارنا ـ اقرب الى معرض للزهور

وفى طوكيو كان فى انتظـارنا ما يقرب من أربعين الف شخص لتحيتنا فى المحطة . وتعثر أخى سيدنى فى الزحـ وسقط ، وكادت تدوسه الاقدام

ان غموض الشرق ليس الا خرافة أسطورية ، وقـد كنت دائما أعتقد أننا نحن الاوربيين نبالغ فى تضخيمها.. ومع ذلك ، فهذا الغموض كان محلقا فى الجو منذ اللحظة التى هبطنا فيها على أرض كوبى . والان ونحن فى طوكيو أصبح يغلفنا تماما . ففى الطريق الى الفندق ، ونحـن نجتاز منطقة هادئة من المدينة ، أبطأت السيارة فجـأة ثم توقفت بالقـرب من قصر الامبراطور . والتفت كونو الى الوراء فى قلق من خلال زجاج السيارة الخلفى ، ثم نظر الى وطلب شيئا عجيبا : أن أنزل من السيارة وأنحنى فى اتجاه القصر .. !

وسألته :

ــ أهذه هى العادة هنا ؟

فقال بلهجة عابرة :

ــ نعم . ولـكن ليس ضروريا أن تنحنى . يكـفى أن تخرج من السيارة

وأدهشنى هذا الطلب بعض الشىء لانه لم يكن هنـاك أحد على مقربة منا ، باستثناء سيارتين أو ثلاث كانت تتبعنا . ولو أن هذا الانحناء كان تقليـدا معتـادا لكانت الجماهير قد علمت به ، ولوجدنا فى انتظارنا زحاما ــ ولو محدود العدد ــ عند القصر

على أننى برغم ذلك خرجت من السيارة وانحنيت . وعندما عدت كان يبدو على كونو أن عبئـا قد انزاح عن كتفيه . أما سيدنى فرأى فى هذا الطلب شيئا غير عادى ، وقال ان تصرف كونو ليس طبيعيا .. خاصة أنه منـذ وصلنا الى « كوبى » يبدو فريسة لقلق غامض . غير أننى

تجاهلت الامر كله ، وقلت انه قـد يكون أجهـد نفسه فى العمل ..

ولم يحدث شيء فى تلك الليـلة . ولكن سـيدنى جاء فى الصباح التالى ثائرا يقول :

ـ انني لا ارتاح الى كل هذا . لقد فتشوا حقائبى . وعبثوا بكافة أوراقى !

فقلت له : انه ـ حتى بافتراض حدوث ذلك ـ فليس للامر اهميـة . ولكن سـيدنى لم يكن ليصرفه شيء عن احساسه بوجود خطر ما . وقال :

ـ هناك شيء كريه يدبر فى الخفاء !

ولكننى ضحكت ساخرا ، واتهمته بالمبالغة فى شكوكه وأوهامه ..

وفى ذلك الصباح عينت الحكومة مرافقا للعناية بشئوننا أوضح لنا أن علينـا اذا شـئنا الذهاب الى أى مكان أن نخطره عن طريق كونو . فأصر سيدنى على أننا قد وضعنا بالفعل تحت المراقبة ، وأن كونو يخفى عنا شيئا ما . والحقيقة أن كونو كان بالفعل يبدو أكثر انزعاجا واضطرابا ساعة بعد ساعة

ولم تكن شكوك سيدنى على غير أساس . لان شـيئا عجيبا حدث فى ذلك اليوم . اذ جاء كونو يقول أن لدى أحد التجار صورا فاضحة مرسومة على الحرير ، وانه يرغب فى أن ازوره فى بيته لاطلع عليها . فطلبت من كونو أن يخبره بأن ذلك لا يروق لى . واذا بكونو يبـدو عليه القلق ، ويقول :

ـ ما رأيك فى أن أطلب منه أن يتركها فى الفندق

فأجبته :

ـ حـذار بأى حال من الاحوال . قل له الا يضـيع وقته عبثا

فقال كونو بعد تردد :
ــ ان هؤلاء الناس لا يقنعون « بلا » .. اجابة
ــ ماذا تعنى ؟
ــ فى الواقع انهم يهددوننى منذ عدة أيام . ففى طوكيو جماعة تحترف العنف ..
فقلت :
ــ كلام فارغ ! سنطلق البوليس فى أعقابهم
ولكن كونو هز رأسه
وفى ذلك المساء ــ بينما كنت اتناول عشائى مع سيدنى وكونو فى حجرة خاصة فى أحد المطاعم ــ اذا بستة شبان يدخلون علينا ، ويجلس احدهم بجوار كونو شابكا ذراعيه امام صدره بينما يقف الاخرون وراءه صفا واحدا !
وبدأ الرجل الجالس يخاطب كونو باليابانية فى غضب مكبوت . فاذا بشىء مما قاله يجعل وجه كونو يشحب فجأة ..
ولم أكن عندئذ مسلحا . ولكننى وضعت يدى فى جيب الجاكتة كما لو كنت أقبض بها على مسدس ، ثم صحت :
ــ ما معنى هذا ؟
فغمغم كونو دون أن يرفع رأسه عن الطبق الذى أمامه :
ــ انه يقول انك أهنت أجداده برفضك أن ترى صوره
فوثبت واقفا ويدى فى جيبى ، ثم نظرت بحيرة الى الرجل قائلا :
ــ ما ذلك الذى تتحدث عنه ؟
ثم قلت لسيدنى :
ــ هيا نخرج من هنا . وأنت يا كونو أطلب لنا عربة
وما كدنا نصل الى الشارع فى سلام حتى تنفسنا الصعداء . وكانت تنتظرنا عربة تاكسى فركبناها وانطلقنا مبتعدين ..

ثم بلغ اللغز قمة التعقيد فى اليوم التالى عندما دعانا ابن رئيس الوزراء الى مشاهده مباريات للمصارعة . فبينما نحن نتابع المباريات جاء أحد المرافقين وربت على كتف المستر كين اينو كاى وهمس فى أذنه بشىء . فالتفت الينا واستأذن قائلا ان هناك مسألة عاجلة تضطره للانصراف ، ولكنه سيعود فيما بعد . وعندما عاد قرب نهاية المباراة كان مضطربا ، شاحب الوجه . وسألته عما اذا كان يشعر بألم ما . فهز رأسه نفيا ، ثم غطى وجهه بيديه فجأة وقال :

— لقد اغتالوا والدى منذ لحظات !

وصحبناه معنا على الفور عائدين الى فندقنا ، حيث قدمنا له بعض الخمر . ثم روى لنا ما حدث : فقد ذهب ستة من طلبة البحرية الى قصر رئيس الوزراء وقتلوا رجال الحرس ، ثم شقوا طريقهم الى جناحه الخاص حيث وجدوه مع زوجته وابنته . أما بقية القصة فقد روتها له والدته : اذ أحاط القتلة بوالده عشرين دقيقة وبنادقهم مصوبة اليه ، وهو يجادلهم لاقناعهم بلا فائدة. ثم هموا باطلاق النار دون كلمة . ولكنه توسل اليهم الا يقتلوه أمام أسرته

فسمحوا له أن يودع زوجته وابنته . ثم نهض بهدوء وقادهم الى حجرة أخرى .. حيث حاول فيما يبدو أن يناقشهم مرة أخرى ، لان أولاده ظلوا وقتا طويلا ينتظرون فى قلق مرير ان يسمعوا صوت الطلقات التى قتلت والدهم

وقد وقع الحادث بينما كان ابنه معنا فى مباراة المصارعة . ولولا ذلك لقتلوه مع والده

وصحبته فيما بعد الى بيته ، حيث رأيت الحجرة التى قتل فيها والده منذ ساعتين . وكانت آثار بركة كبيرة من الدم ما تزال رطبة على البساط ، وفى الحجرة

جماعة من المصــورين ومخبرى الصحف ، ولكن الذوق يمنعهم من التقاط اية صور . غير انهم مع ذلك احاطوا بى يسألوننى أن أصرح بشىء . فلم أستطع أن أقول انها ماساة للاسرة ، وللامة

وفى اليوم التالى للمأساة كان مقررا أن ألتقى برئيس الوزراء الراحل فى حفل استقبال رسمى .. فألغى بالطبع.

وأصر سيدنى على أن جريمة الاغتيال هذه ليست الا جزءا من اللغز ، وأنها بطريقة أو بأخرى تتصل بى . وقال :

ــ انها اكثر من مصادفة أن يكون الذين اغتالوا رئيس الوزراء ستة ، والذين دخلوا علينا المطعم أثناء العشــاء ستة أيضا

***

لم تنجل غوامض هذا اللغز فيما يتعلق بى الا بعد أن نشر « هيوج بياز » كتابه الغنى بالمعلومات الممتعة «الحكم عن طريق الاغتيال » . ففيه يتضح أن المنظمة التى تدعى « القنين الاسود » كانت نشطة فى ذلك الوقت . ويبدو أنها هى التى طلبت أن أنحنى أمام القصر . وسأنقل الان من الكتاب هذه الفقرات عن محاكمة الذين اغتالوا رئيس الوزراء :

« وأمام المجلس العسكرى ذكر الملازم سيشى كوجا ــ زعيم المؤامرة فى الاسطول ــ ان المتآمرين ناقشوا خطــة لفرض الاحكام العرفية عن طريق قذف مجلس النــواب بالقنابل . وذلك بأن يدخل بعض المدنيين الذين يســهل عليهم الحصول على تصريحات بالدخول ، ويلقوا من شرفة المجلس عددا من القنابل ، بينما ينتظر الضباط الشــبان خلف الابواب لقتل الاعضاء أثناء هربهم . أما الخطــة الاخرى ــ التى لم يكن ليصــــدقها أحد لو لم تذكر فى

المجلس العسكرى ـ فكانت تقترح اغتيال شارلى شابلن الذى كان عندئذ يزور اليابان. وكان رئيس الوزراء قد دعا المستر شابلن الى تناول الشاى نوضع المتآمرون خطـه لاقتحام مقره الرسمى أثناء الحفل

القاضى : ماذا كان الغرض من قتل شابلن ؟

كوجا : ان شابان شخصيه محبـــوبة فى الولايات المتحدة • وهو الفتى المدلل عند الطبقة الرأسمالية • وكنا نؤمن بأن اغتياله سيثير حربا مع أمريكا • وبذلك نصطاد عصفورين بحجر واحد

القاضى : لماذا اذن تخليتم عن هذه الخطة الرائعة ؟!

كوجا : لان الصحف ذكرت بعد ذلك أن حفل الاستقبال المزمع اقامته ليس مؤكدا بعد

القاضى : وماذا كان الدافع الى رسم خطة الهجوم على المقر الرسمى لرئيس الوزراء ؟

كوجا : لكى نتخلص من رئيس الوزراء الذى هو فى نفس الوقت رئيس حزب سياسى • وبعبارة أخرى لكى نقـلب مركز الحكم

القاضى : هل كانت نيتك أن تقتل رئيس الوزراء ؟

كوجا : نعم • وان لم تكن بينى وبينه أية أحقـــاد شخصية ••

وقال المتهم أيضا أن خطة قتل شابلن قد صرف النظر عنها لان الجدل قد ثار « حول ما اذا كان صوابا أن يقتل الممثل من أجل احتمال ضئيل بأن يؤدى هـذا الى حـرب مع الولايات المتحدة ، وأن يزيد من سلطة العسكريين »

هذا هو ما جاء فى الكتاب

وانى لاتصور القتلة وقد نفذوا خطتهم ثم اكتشـفوا بعدها اننى انجليزى ولست أمريكيا ، وراحوا يقـولون :

ـ أوه ! لا مؤاخذة !

الفصل الخامس عشر

بدأت المؤامرات

* زواجي الثاني : بوليت جودار
* بداية المتاعب : فيلم عن هتلر
* الرسائل تهدد بنسف السينما
* خرجت من عند روزفلت مخمورا !

عندما عدت الى بيتى فى « تلال بيفرلى » ، وقفت فى منتصف حجرة الجلوس أتلفت حولى · كان الوقت قبيل الغروب ، وثمة ظلال طويلة ممتدة تجرى عبر الحديقة·· وخطوط من الاشعة الذهبية تتدفق عبر الحجرة ، وياله من هدوء ذلك الذى كان يسود كل شىء ! كان ممكنا أن أبكى فى تلك اللحظة ، فأنا غائب منذ ثمانية أشهر ، ومع ذلك ، فقد شككت فى أننى سعيد بعـــودتى · ذلك أننى كنت مرتبك الذهن ، ضائعـــــا ، وكنت فريسة للقلق ، ولاحساس عميق بالوحدة

كان عندى أمل غامض ــ وأنا فى أوربا ــ فى أن ألتقى بشخص يكيف حياتى · ولكن ذلك لم يتحقق · فمن بين كافة النساء اللواتى التقيت بهن ، لم يكن يصلح لهـــذا الدور غير قليلات ــ ولم يبد القادرات على القيــــام به أى اهتمام · والآن وقد عدت الى كاليفورنيا مرة أخرى فانى أعود الى مقبرة · حتى دوجلاس ومارى ، فانهما كانا قد افترقا ·· ولم يعد لعالمهما وجود

وكان على فى ذلك المساء أن أتناول عشائى وحــــدى ، وهو أمر لم أكن أطيقه فى ذلك البيت الكبير ·· وعلى هذا فقد ألغيت العشاء · وركنت السيارة ، ومضيت أتمشى فى شارع ، هوليوود بولفار · وأحسست كأننى لم أغب أبدا فقد كانت هناك نفس الصفوف من المتاجر ذات الدور

الواحد ، ونفس مخازن الاسطول والجيش الكالحة والصيدليات التى تبيع بالتخفيض ، ومحلات وولورث وكيرسج .. وكلها تثير الكآبة ، وتفتقد الى الذوق السليم . فهوليوود لم تكن قد تخطت بعد مرحلة المدينة التجارية الناشئة

وشرعت ـ وأنا أمشى فى الطريق ـ أفكر فيما اذا كان واجبا على أن أعتزل ، وأبيع كل ما أملك ، ثم أرحل الى الصين . لم يعد فى هوليـــوود ما يدفعنى الى البقاء . فالسينما الصامتة انتهت بلا نزاع ، ولا رغبة لدى فى أن أدخل معركة السينما الناطقة . وفضلا عن ذلك ، فقد كنت خارج الدائرة الاجتماعية . وعندما حاولت أن أفكر فى شخص تربطنى به علاقة تسمح بأن أخاطبه تليفونيا وأدعوه الى العشاء دون حرج ، لم أجد فى ذهنى أحدا . وعندما عدت الى البيت اتصل بى ريفز ، مدير أعمـــالى ، ليخبرنى بأن كل شىء على ما يرام . ولكن لم يتصل بى أى انسان غيره

كانت هوليوود هى الاخرى تمر بمرحـــلة تحول فى حياتها . فمعظم نجوم الشاشة الصامتة قد اختفوا .. ولم يبق منها غير القليل .. وبسيادة السينما الناطقة فقدت هوليوود سحرها وبوهيميتها .. وصارت السينما ـ بين يوم وليلة ـ صـــناعة متجهمة جادة . فخبراء الصـــوت يجددون الاستديوهات ، ويقيمون أجهزة للصوت بالغة التعقيد . وفى البلاتوه تتجول آلات تصوير كل منها فى حجم غرفة ، كأنها دبابات . وثمة معدات لاسلكية معقدة يجرى تركيبها ، ولكل منها آلاف الاســـلاك . ورجال يجلسون بسماعات فى أذانهم ، توجههم التروس هنـــا

وهناك كأنهم محاربون قدموا من المكسيك ، بينما يؤدي الممثلون أدوارهم وفوق رءوسهم تحلق ميكروفونات مدلاة كسنارات الصيد . كل شيء معقد يثير الكآبة . كيف يستطيع أى انسان أن يمارس الخلق وكل هذه الخردة حوله ؟ . لقد كرهت ما وراء ذلك كله . ثم وجد بعضهم أن هذه الخردة المعقدة كلها يمكن أن تصنع بحيث يسهل حملها ، وأن آلات التصوير يمكن أن تكون أسهل فى الحركة . وأن المعدات يمكن أن تؤجر لقاء مبلغ معقول . ولكننى بالرغم من هذه التحسينات لم أجد حافزا كبيرا الى استئناف العمل من جديد

وظلت تداعبنى فكرة تصفية أعمالى والاستقرار فى الصين . ففى « هونج كونج » أستطيع أن أحيا حياةطيبة وأنسى السينما ،بدلا من أنأتعفن هنا وأذوى على عودى فى هوليوود

وقضيت ،متكاسلا ،ثلاثة أسابيع ثم اتصل بىجو شنك ذات يوم ليطلب منى أن أقضى أجازة الاسبوع فى يخته الخاص .. وكان يختا شراعيا بديعا طوله أربعون مترا ، ويتسع لاربعة عشر شخصا فى راحة تامة . وكان جو يبحر عادة حول ساحل جزيرةكاتالينا بالقرب من افالون. ونادرا ما كان ضيوفه يثيرون حماسه . فهم فى العادة من هواة البوكر : والبوكر لعبة لا تثير اهتمامى . على أنه كانت توجد متع أخرى . اذ أن جو كان يبحر عادة مع سرب من الحسان . ولما كنت فى حالة تعسة من الوحدة، فقد وافقت على أمل أن أجد شعاعا رقيقا من الضوء ..

وكان هذا بالضبط هو ما حدث .. فقد التقيت « ببوليت جودار »

كانت مرحة ، ومسلية . واخبرتنى فى المساء أنها

تنوى ان تستثمر خمسين الف دولار - من النفقة التى حصلت عليها من زوجها السابق - فى مشروع سينمائى ، وانها قد حملت معها الى السفينة كل الوثائق المعدة للتوقيع فكدت أطبق على عنقها لامنعها • فالشركة كان واضحا أنها من مؤسسات هوليوود القائمة على النصب • وقلت لها اننى عملت فى صناعة السينما منذ ميلادها تقريبا ، واننى - بكل خبرتى بها - لا يمكن ان افكر فى استثمار نصف قرش الا فى افلامى •• واننى حتى فى ذلك اتعرض لمخاطرة ، ودللت على وجهة نظرى بأنه اذا كان هيرست ومعه هيئة من رجال الفن والادب وفى امكانه الحصول على أوسع القصص انتشارا فى الولايات المتحدة ، فقد خسر بسبب الاستثمار فى الافلام سبعة ملايين دولار ، فأية فرصة لها هى ؟

واستطعت أخيرا أن أجعلها تتخلى عن المشروع• فكانت هذه بداية صداقتنا • وكان الرباط الذى جمع بيننا هو الوحدة ••

من العجيب اننى وجدت الحافز على اخراج فيلم صامت جديد بمحض الصدفة ومن حيث لا أتوقع على الاطلاق

كنت مع بوليت فى سباق للخيل فى تيجوانا بالمكسيك• وكان مفروضا ان يقدم كأس فضى للفائز بجائزة ما من جوائز كنتوكى • وسئلت بوليت ان تقدم الكأس للجوكى الفائز وتلقى كلمة بلهجة الجنوب • فاقتنعت بغير جهد كبير • واذا بها تذهلنى عندما وقفت امام الميكروفون ! فمع انها من بروكلين • الا انها قدمت تقليدا رائعا لسيدة مجتمع كنتوكى • وجعلنى هـــذا أومن بأنها قادرة على التمثيل ••

ومن هنا بدأ يدب فى النشاط • فقد بدت بوليت فى

عيني صالحة لأن تكون فتاة شريدة • وهذه شخصية ملائمة تماما لان اقدمها على الستار • وفى استطاعتى ان اتصور لقاء فى سيارة عامة بين الصعلوك والشريدة ، يتصرف اثناءه الصعلوك تصرف الفرسان • فيقدم لها مقعده • ويكون هذا اساسا استطيع ان ابنى عليه حبكة قصصية ، وكثيرا من المضحكات

ثم تذكرت فى ذلك الوقت مقابلة تمت بينى وبين صحفى شاب لامع من جريدة « نيويورك ورلد » ، حدثنى بمناسبة زيارتى الى ديترويت عن طريقة « الحزام » فى الصناعة • وكان حديثه يرسم صورة مفزعة لشباب سليم البنية تستدرجه الصناعات الكبرى فى الريف ، ليتحول بفضل نظام الحزام الى حطام من الاعصاب التالفة بعد أربع سنوات أو خمس

واذا بهذا الحديث يلهمنى فكرة فيلم « العصر الحديث » حيث استخدمت ماكينة للطعام كاختراع لتوفير الوقت ، وبحيث يستطيع العمال أن يواصلوا العمل أثناء تناول طعامهم • ويؤدى مشهد المصنع فى النهاية الى اصابة الصعلوك بانهيار عصبى • وتولد القصة من التطور الطبيعى للاحداث • وبعد شفاء الصعلوك يلقى القبض عليه ، ويلتقى بالشريدة التى قبض عليها ايضا بتهمة سرقة الخبز • ويكون لقاؤهما فى سيارة البوليس المشحونة بالمجرمين • ومنذ تلك اللحظة تدور القصة حول اثنين من الضائعين يحاولان ان يسايرا العصر الحديث • وتقتحم حياتهما الازمات والاضرابات ، والاضطرابات ، والبطالة ، وكان على بوليت ان ترتدى خرقا بالية • وكادت تبكى وأنا ألطخ وجهها لتبدو متسخة • ولكننى صممت على ذلك قائلا :

ـ هذه الملطخ هى طوابع الحسن
وقبل افتتاح فيلم « العصر الحـــديث » كتب بعض محررى الصحف يقولون انهم قد سمعوا شائعات تدل على انه فيلم شيوعى · واظن ان السبب فى هذا كان ملخصـــا للقصة سبق أن ظهر فى الصحف ·· على أن المعلقين المتحررين كتبوا انه ليس مع الشيوعية ولاضدها واننى ـ من قبيل المجاز ـ جلست على السور الفاصل بين الطرفين ··

***

سجل فيلم العصر الحديث نجاحا ساحقا · ولكن السؤال المحير عاد يواجهنى من جديد : هل اخرج فيلما صامتا اخر ؟

كنت اعلم اننى ساقدم على مخاطرة كبيرة لو فعلت · فهوليوود كلها قد هجرت الافلام الصامتة ، ولم يعـــد متمسكا بها غيرى · وقد حالفنى الحظ حتى الان

ولكن الاستمرار فى هذا الطريق ، مع احساسى بأن فن البانتوميم يتحول تدريجا الى فن مهجور ، لم يكن امرا مشجعا · كما انه لم يكن سهلا خلق حركة صامتة لمدة ساعة وأربعين دقيقة ، وترجمة الفكر الى أحداث ، وتقـــديم فكاهة ترى بالعين كل عشرين قدما من الفيلم ، على طول سبعة الاف او ثمانية الاف قدم · وقد فكرت فى الاصوات المحتملة التى يمكن ان يتكلم بها الصعلوك ، وفيما اذا كان ينبغى أن ينطق بمقاطع قصيرة أو بمجرد همهمة ولكن بلا فائدة · فلو أننى تحدثت لما عاد هناك فرق بينى وبين أى ممثل كوميدى اخر · وهكذا كان طراز المشاكل المزعجة التى تواجهنى ··

وكنت قد تزوجت بوليت منذ عام · ولكن الهوة كانت

قد اتسعت بيننا . وكان بعض السبب فيها يعود الى همومى ، وانشغال بالى بمحاولة الإستمرار فى العمل ..

على ان نجاح « العصر الحديث » مكن بوليت من ان توقع عقودا للعمل فى كثير من الافلام لحساب باراموونت أما أنا ، فلم يكن فى استطاعتى أن أعمل أو ان امثل ..

عاد شبح الحرب من جديد ، وبدأ النازى يزحفون . لقد نسينا بسرعة تلك الحرب العالمية الاولى ، بسنواتها الاربع من المذابح الرهيبة . وها هى ذى حرب جديدة تختمر وأنا أحاول أن أكتب قصة تمثلها بوليت . ولكننى لم استطع ان احرز تقدما . وكيف يمكننى ان أصرف انتباهى الى عبث النساء ، او افكر فى الغراميات ومشاكل الحب ، بينما الجنون يستيقظ على يد ذلك الدميم الاحمق أدولف هتلر ؟

وكان الكسندر كوردا قد اقترح فى عام ١٩٣٧ ان انتج فيلما عن هتلر ، تقوم عقدة قصته على شخصية مزورة .. باعتبار ان لهتلر وللصعلوك نفس الشارب . وقال اننى استطيع ان امثل كلا من الشخصيتين . ولكننى فى ذلك الوقت لم افكر كثيرا فى الموضوع . أما الان فقد صار موضوع الساعة ، خاصة اننى فى حاجة يائسة الى استئناف العمل

ثم فجأة ، طرقت ذهنى فكرة ! نعم .. اننى فى دور هتلر أستطيع أن أخطب فى الجماهير بأية رطانة تروق لى، واتكلم كما اشاء . بينما اظل فى دور الصعلوك صامتا ثم ان اية قصة عن هتلر تصلح مادة للبرمسك والبأنتوميم فى وقت واحد

وهكذا أسرعت فى حماس شديد أعود الى هوليوود ، وأبدأ العمل بغير سيناريو

واستغرق تطوير القصة عامين !

وبعد أن فرغت من نصف الفيلم تقريبا ، بدأت اتلقى رسائل مزعجة من الفنانين المتحدين • فقد لفت مكتب هويز انظارهم الى اننى قد اصطدم بمتاعب مع الرقابة • كما ان المكتب الانجليزى ابدى بعض القلق بشأن الفيلم المعادى لهتلر ، وعبر عن شـــــكه فى امكان عرضه فى انجلترا ••

ولكننى كنت مصمما على أن أواصل طريقى • فهتلر يجب أن يكون مادة للضحك

ولو كنت اعلم عندئذ بحقيقة الفظائع التى تجرى فى معسكرات الاعتقال الالمانية لما اســـــتطعت أن أنتج فيلم « الدكتاتور العظيم » • اذ ما كان يمكننى ان اجعل من جنون الدم النازى مادة للمزاح • علما اننى كنت مصرا على تسخيف خرافاتهم الغبية عن وجود عنصر ذى دم نقى كأنما يمكن حقا ان يوجد فى العالم مثل هذا العنصر خارج اطار قبائل الابوريجين الاسترالية !

وتوالت الرســـــائل القلقة من مكتبنا فى نيويورك ، تحاول اقناعى بألا استمر فى الفيلم ، معلنة اننى لن أتمكن من عرضه فى انجلترا او أمريكا ولكننى كنت مصمما على الاستمرار ، ولو اضطررت ان استأجر له بنفسى صالات العرض ••

وقبل ان أفرغ من الفيلم اعلنت انجلترا الحرب على النازى • وكنت على ظهر يختى فى كاتالينا ، أقضى أجازة الاسبوع ، عندما سمعت النبأ السىء فى الاذاعة • وقلنا عندئذ :

ـ لن يتمكن الالمان أبدا من اختراق خط ماجينو

ولكن العاصفة سرعان ما بدأت وتم اجتياح بلجيكا ،

وانهيار خـــط ماجينو ، ثم الموقف الرهيب فى دنكرك واحتلال فرنسا • واصبحت الانباء تزداد سوءا يوما بعد يوم • وانجلترا تحارب وظهرها الى الحائط • وبدأ مكتبنا فى نيويورك يوالينا الان ببرقيات الاستعجال :

ـ أسرعوا بالفيلم • ان الجميع فى انتظاره

ولكن الدكتاتور العظيم كان فيلما صعبا ، يحتاج الى كثير من النماذج المصغرة ووسائل التحايل التى يستغرق اعدادها عاما كاملا • وبدونها كان يمكن ان يتكلف خمسة اضعاف ما تكلفه • ومع ذلك فقد انفقت نصف مليون دولار قبل أن تبدأ الكاميرا تدور !

ثم قرر هتلر أن يغزو روسيا • فكان هذا هو الدليل على أن فقــــدان توازنه الحتمى قد بـــدأ • ولم تكن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب بعد ، ولكن احساسا بالارتياح ساد فى كل من انجلترا وأمريكا

وكنت أثناء أعداد الفيلم قد تلقيت عددا من رسائل المتعصبين ضد الفيلم . والان وقد تم اعداده فقد زاد عدد هذهالرسائل . وكان بعضها يهدد بالقاء القنـــابل فى دور السينما ونسف الشاشة حيثما يعرض الفـيلم ، والبعض الاخر يهدد باثارة الشغب فقط . ففـكرت فى البداية أن ألجأ الى البوليس ، ولكننى وجدت أن ذيوع أمر كهذا سيجعل الجمهور يتجنب الفيلم • ثم اقتـــرح أحد اصــدقائى ان اتحدث الى (هارى بريدجز) رئيس اتحاد لانجشورمن . فدعوته الى العشـــــاء عندى . وصارحته بالسبب فى رغبتى فى مقابلته ••

وكنت أعلم انه عدو للنازى فأوضحت له اننى أقــوم باعداد فيلم كوميدى ضد النازى ، واننى قد تلقيت عددا من خطابات التهديد . وقلت :

ـ لواننى دعوت عشرين .. أو فلنقل ثلاثين من رجالك الى حفلة الافتتاح ، ووزعناهم بين المتفرجين ، لضمنا ـ اذا ما حاول الذين يعطفون على النازى أن يثيروا شغبا ـ أن يدوس هؤلاء الرجال على أقدامهم برفق ، أو يسكتوهم قبل ان يحدث شيء خطير

فضحك بريدجز وقال :

ـ لا أظن أن الامر يحتاج الى هذا يا شارلى . ان لك من جمهورك نفســـه ما يكفى لحمايتك ، والعناية بأمر أى متعصب . اما اذا كانت هذه الخطابات من النازيين ، فانهم على أية حال أجبن من أن يكشفوا عن أنفسهم فى النور..

كان مقـررا ان يعرض الدكتاتور العظـيم فى دارين للسينما فى نيويورك : استور ، وكابيتول

وفى آستور آقمنا عرضا خاصا للصـحافة . وتناول العشاء معى فى تلك الليله هوبكنز ، كبير مســتشارى فرانكلين روزفلت ، ثم ذهبنا الى الســـينما فى منتصف العرض ..

والعروض الخاصة للافلام الكوميدية لهـــا خاصية محددة .. هى أن الضحك فيها يفرض نفسه بالرغم منه وفى ذلك العرض الخاص كان الضحك يحمل نفس الطابع

وقال هارى ونحن نغادر السينما : ـ انه فيلم عظيم . شيء يستحق الجهد الذى انفق فيه . ولكن فرصـــته ضئيلة . وسيخسر ماليا

ولما كنت قد أنفقت من حر مالى مليونى دولار ، وعامين من العمل ، فقد أثار غيظى هذا التنبؤ . ولكنى هززت رأسى صامتا . وأحمد الله على أن هوبكنز كان مخطئا . فقد افتتح الدكتاتور العظيم فى الكابيتول أمام جمهـــور من الشخصيات اللامعة ، استقبلوه بحرارة وحمـاس ،

وظل يعرض خمسة عشر أسبوعا متواليـــة فى دارين فى نيويورك وسجل أكبر ايراد لاى فيلم من افـلامى حتى ذلك الوقت

***

أما أراء النقاد فكانت متباينة فمعظمهم أبدى اعتراضه على خطبتى الاخيرة فى الفيلم • وقالت الديلى نيوز اننى أشرت فيهـا الى الجمهـور باصبع شـيوعى • ومع أن غالبية النقاد اعترضوا على هذا الخطاب ، وقالوا أنه غير متفق مع الشخصية ، الا أن الجمهـور أعجب به بصفة عامة • وتلقيت رسائل كثيرة رائعة ، تقرظه

ودعيت بعد ذلك بأيام الى الظهور فى قاعة (بنـــات الثورة الامريكية) فى واشنطون ، لاعيد القاء خطبـــة الفيلم فى الاذاعة

وسبق ذلك دعوتى الى مقابلة الرئيس روزفلت الذى كنا قد أرسلنا اليه الفيلم فى البيت الابيض بنـــاء على طلبه • فلما قادونى الى حجرة مكتبه حيانى قائلا :

ـ اجلس يا شارلى •• ان فيلمك قد أثار لنا الكثير من المتاعب فى الارجنتين

وكان هذا تعليقه الوحيد عليه • ولخص لى أحـــد الاصدقاء الموقف فيما بعد بقوله :

ـ لقد استقبلك البيت الابيض ولكنه لم يحتضنك

وقضيت مع الرئيس أربعين دقيقة ، قدم لى أثنـــاءها عددا من كئوس المـــارتينى التى قذفت بها الى جوفى بسرعة بدافع الخجل • فلما حان موعد انصرافى خرجت أترنح من البيت الابيض • ثم تذكرت فجأة أننى سأتحدث فى الاذاعة فى الساعة العاشرة ، وانها مناسبة ستسـاهم فيها الامة كلها • أى أننى سأتحـــدث الى ما يقرب من



شارلي في وقت فراغه يمارس رياضته

ستين مليونا فأخذت عدة حمامات باردة ، وشربت كميات من القهوة المركزة ، قبل أن أتمكن من استعادة توازني الى حد ما .. ولما كانت الولايات المتحدة لم تدخل الحرب بعد، فقد كان في القاعة في تلك الليلة عدد كبير من النازيين . وما كدت أبدأ خطابي حتى شرعوا يسعلون .. وكان سعالهم أعلى من أن يكون طبيعيا . فأثار ذلك أعصابي الى حد أن فمي بدأ يجف ، ولساني بدأ يلتصق بسقف حلقي ، ولم أعد قادرا على النطق

وكان الخطاب يستغرق ست دقائق . فاضطررت أن أتوقف فى منتصفه ، وقلت اننى لن أستطيع الاستمرار فى القائه ما لم أشرب جرعة من الماء . ولكن لم تكن هنـــاك بالطبع قطرة من الماء فى القاعة وها أنذا أبقى ستين مليونا فى الانتظار .وبعد دقيقتين بدتا بغير نهاية ،قدموا لى الماء فى مظروف صغير من الورق . فاستطعت بهذه الطريقـــة أن أكمل خطبتى ..

الفصل السادس عشر

أمام المحكمة

* بدأت أمريكا تعادينى
* أصابع النازى فى المعركة
* القضية التى لفقت لى
* أونا .. نقطة تحول فى حياتى

بالرغم من أن أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب بعـد . فان روزفلت كان يخوض حربا باردة ضد هتلر . وكان هذا مما يعقد الامور أمام الرئيس .. فالنازيون كانوا قد تسللوا الى المؤسسات والمنظمات الامريكية . وكانت هذه المنظمات تستخدم ـ بوعى أو بغير وعى ـ كأدوات فى يد النـــازى ..

ثم فجأة ، وصلت الانباء المثيرة عن هجوم اليابان على بيرل هاربور . واذهلت قسوة هذا النبأ أمريكا . ولكنها على الفور عبأت نفسها للحرب ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت فرق كثيرة من الجنود الامريكيين قد ارسلت عبر البحار

وفى هذه الفترة كان الروس قد أوقفوا جحافـــل هتلر خارج موسكو ، وطالبوا بفتح جبهة ثانيـــــة على الفور . وكان روزفلت يؤيد هذا الطلب . ولكن سمـوم العاطفين على النازى كانت ـ برغم اختفائهم من الحياة العلنية ـ ما تزال فى الجو . فما من حيلة الا استخدمت لاثارة الفرقة بيننا وبين حلفائنا من الروس .. وشاعت فى تلك الفترة الدعايات الخبيثة التى تقول : فلنترك كلا منهما ينزف دمه حتى الموت ، ثم نأتى نحن لنشهد مصرعهما . واستخدمت كافة ألوان التحايلات من اجل الا نفتح جبهة ثانية . وتلت ذلك أيام قلقة ، نسمع فى كل يوم منها عن خسائر مذهلة للروس . وامتدت الايام الى أسابيع ..

والاسابيع الى شهور كثيرة ، والنازيون ما زالوا خــارج اسوار موسكو

وفى اعتقادى ان هذه الفترة كانت بداية متاعبى . فقد تلقيت مكالمة تليفونية من «رئيس اللجنة الامريكية للمعونة الحربية لروسيا » من سان فرانسسكو يسألنى عما اذا كنت أقبل أن أحل محل المستر جوزيف . ى . ديفبز (السفير الامريكى فى روسيا) .. الذى كان مفروضا ان يلقى خطبة ، ولكنه أصيب فى اللحظة الاخيرة بالتهاب فى الحنجرة

ومع انه لم تكن أمامى غير ساعات قلائل للاســتعداد فاننى قبلت

كانت قاعة الاجتماع تتسع لمائة الف وكانت ممتلئــة عن آخرها . وعلى المنصــة كان يجلس جنرالات وأمراء بحر أمريكيون وعمدة سان فرانسسكو « روسس »

ولكن الخطب كانت متحفظة ، ومائعة .. فالعمــدة يقول : «يجب أن نعيش وفى اذهاننا أن الروس حلفاؤنا» . ويحرص على ألا يبالغ فى تصوير حرج موقف الروس ، أو التنويه بشجاعتهم أو الاشارة الى أنهم يقاتلون ويموتون من أجل احتجاز مائتى فرقة من النازى تقريبا . فالروح السائدة فى ذلك المساء ــ كما أحسست بها ــ كانت توحى بأن حلفاءنا « غرباء فى فراشنا »

وكان رئيس اللجنة قد ناشدنى أن اتكلم ساعة كاملة على الاقل . فأزعجنى ذلك . لان حدود طاقتى اربع دقائق على الاكثر ..

ولكننى بعد ان استمعت الى تلك الثرثرة التافهة المنافقة أحسست بالغيظ .. وسجلت اربع نقاط للحــديث على ظهر بطاقة العشاء ، وانتظــرت فى كواليس المسرح وأنا

أمشي ذاهبا عائدا ، فى حالة من التوتر والخوف ، الى أن سمعت اسمى يقدم الى الحاضرين

كنت أرتدى ثوب العشاء ، وربطة عنق سوداء . وارتفع تصفيق لم يدع لى فرصة لاسترداد روعى . وعندما هدأ التصفيق قلت كلمة واحدة : « أيها الرفاق ! » . . فارتجت القاعة بالقهقهات العالية . فلما هدأت الضحكات عـــدت أقول مؤكدا :

ـ واننى لاعنى ايها الرفاق !

فتجدد الضحك ، ثم التصفيق ، ثم عدت أستطرد :

ـ اننى أقدر ان هناك عددا كبيرا من الروس معنـــا الليلة . وان الطريقة التى يقاتل بها مواطنوكم ويموتون . فى هذه اللحظة ، لتجعل مخاطبتكم « يأيهـــا الرفاق » شرفا ومكرمــــة . .

فوقف كثيرون على أقدامهم فى قلب موجة التصفيق

والآن احسست انى التهب وانا اتذكر ذلك التعبـــير « فلندع كلا منهما ينزف دمه » . وأوشكت أن أعبر عن استنكارى له . . لولا أن حافزا داخليا أوقفنى . وقلت بدلا من ذلك :

ـ اننى لست شيوعيا . ولكننى انسان ، واعتقد أنى افهم الاحاسيس الانسانية . ان الشيوعيين ليسوا مختلفين عن غيرهم . فهم اذا ما فقدوا ذراعا أو ساقا يتألمـــون كما نتألم جميعا ويموتون كما نموت . والام الشيوعيـــة هى نفسها كل أم أخرى . فهى تبكى كما يبكى الامهات جميعا عندما تتلقى النبأ الفاجع بأن اولادها لن يعودوا اليها . اننى لا احتاج الى أن أكون شيوعيا حتى أعرف ذلك . كل ما احتاج اليه هو ان أكون آدميا . وأن الامهـــات

الروسيات يبكين فى هذه اللحظة كثيرا ، كما يموت كثير من أبنائهن ..

وظللت أتكلم أربعين دقيقة ، دون أن اعرف ماذا سيحدث بعد ذلك . وجعلت المستمعين يضحكون ويصفقون بنوادر عن روزفلت ، وعن خطبتى الخاصة بسندات الحرب أيام الحرب العالمية الاولى . وصار كل ما افعله فوق النقد . واستطردت أقول :

ـ والآن فى هذه الحرب .. هأنذا أقف مدافعا عن المعونة العسكرية للروس

وسكت ثم عدت أكرر :

ـ المعونة العسكرية للروس . ان المال قد يعنيهم ، ولكنهم فى حاجة الى ماهو أكثر من المال . وقد قيل لى ان للحلفاء مليونى جندى يتسكعون فى شمال ايرلندا ، بينما يواجه الروس وحدهم حوالى مائتى فرقة من النازيين

فساد صمت عميق ، ، مشحون بالتوتر بينما مضيت أقول مؤكدا :

ـ ان الروس حلفاؤنا . انهم لا يقاتلون من أجل أسلوبهم فى الحياة ، وانما من أجل أسلوبنا أيضا . واذا صدق ما أعرفه عن الامريكيين ، فانهم يحبون أن يخوضوا معاركهم بأنفسهم . ان هذا هو ما يريده ستالين ، وما ينادى به روزفلت .. فلنناد به كلنا اذن .. ولنفتح الآن جبهة ثانية ..

فتصاعدت الصيحات بجنون ، دامت سبع دقائق . ذلك ان الفكرة كانت فى ضمائر المستمعين وعقولهم . وصار محالا بعد ذلك أن يتركونى أواصل الكلام ، وانما ظلوا يصفقون ويدقون الارض بأقدامهم . وبينما هم يتصايحون، ويطبلون ، ويقذفون بقبعاتهم فى الهواء بدأت أتساءل عما

اذا كنت قد تجاوزت الحدود . ثم بدأت ألوم نفسي على مثل هذا التفكير الانهزامى فى الوقت الذى يقاتل فيه الآلاف . ويموت الالاف

وعندما هدأ الجمهور أخيرا . مضيت أقول :

ـ مادام هذا هو ما تشعرون به ، فهل يسمح كل منكم مشكورا بارسال برقية الى الرئيس : فلنأمل ان يتلقى ـ حتى صباح غد ـ عشرة آلاف رسالة تطالب بجبهة ثانية!

وبعد ان انتهى الاجتماع ، أحسست بالجو مشحونا بالتوتر وعدم الارتياح ، وذهبت مع « داولى فيلد مالون» و « جون جارفيلد » الى مكان ما للعشاء . وهناك قال جارفيلد مشيرا الى خطبتى :

ـ انك لعلى قدر كبير من الشجاعة

فأزعجتنى هذه الملاحظة . ذلك اننى ماكنت أحب أن أبدو رجلا باسلا ، أو أن ارتبط بقضية سياسية كبرى . فما تكلمت الا بما أحسست به مخلصا ، وما اعتقدت أنه الحق ..

على أننى ـ بعد ملاحظة جون ـ بدأت اشعر بكآبة تبسط ظلها على بقية الليلة .. وان كانت السحب التى توقعتها نتيجة لتلك الخطبة لم تلبث ان تبددت وعادت الحياة ـ بعد رجوعى الى بيفرلى هيلز ـ تجرى مجراها العادى

وبعد ذلك بأسابيع تلقيت طلبا آخر بأن أتحدث تليفونيا الى اجتماع حاشد فى ميدان ماديسون . ولما كان ذلك من اجل نفس القضية فقد قبلت ـ ولم لا ؟ وخاصة ان الاجتماع كان تحت رعاية شخصيات ومنظمات محترمة

واستغرقت هذه المرة اربع عشرة دقيقة فى القاء خطابى الذى رأت لجنة مؤتمر المنظمات الصناعية انه صالح لان تطبعه وتنشره

وبدأت حياتى الاجتماعية فى نيويورك تتقلص تدريجا نتيجة خطبى عن الجبهة الثانية ، واحسست أننى الآن أهوى فى منزلق سياسى . وبدأت أناقش دوافعى : والى أى حد يحفزنى الممثل الذى فى داخلى اترانى كنت أخوض هذه المغامرة « الدون كيشوتية » لو لم أكن قد أخرجت فيلما معاديا للنازى . أم ان الامر تنفيس عن كل حزازاتى، وانفعالاتى ضد الافلام الناطقة ؟

وفى اعتقادى ان كل هذه العوامل كان لها دخل . ولكن أقواها كان بغضى وازدرائى للنظام النازى

***

عندما عدت الى تلال بيفرلى ، واستأنفت العمل فى اعداد « الاصل والظل » ، وزارنى فى البيت أورسون ويلز ومعه اقتراح شرحه قائلا أنه يفكر فى انتاج عدد من الافلام التسجيلية يعرض فيها قصصا من الحياة الواقعية . وان أحد هذه الافلام سيدور حول السفاح الفرنسى الشهير «بلوبيرا لاندرو» الذى يعتقد انه سيكون دورا دراميا رائعا لى

وراقت لى الفكرة ، باعتبارها تغييرا يخرج بى عن اطار الكوميديا ، وعن الكتابة والتمثيل والاخراج لنفسى كما هو الحال منذ سنوات . ولهذا طلبت منه أن أطلع على السيناريو . فقال :

ــ أوه . انه لم يكتب بعد . ولكن كل مايلزم هو الحصول على وثائق محاكمة لاندرو . وسأحضرها اليك . ثم أضاف :

ــ لقد ظننت انك قد ترغب فى المساهمة فى كتابته

فأحسست بخيبة أمل . وقلت له :

ــ اذا كان على أن أساهم فى كتابة السيناريو ، فالامر لا يروق لى

وانتهت المسألة عند هذا الحد

ولكننى بعد يوم أو يومين أشرقت فى ذهنى فكرة ان لاندرو يصلح ماده لكوميديا رائعة . فأتصلت بويلز وقلت له :

ـ اسمع ٠٠ ان فيلمك التسجيلى المقترح عن لاندرو قد الهمنى فكرة كوميديا . ولن تكون لهذه الكوميديا صلة بلاندرو . ولكننى على استعداد ـ من أجل حسم كل شىء ـ ان أدفع لك خمسة آلاف دولار .. لمجرد أن اقتراحك هو الذى دفعنى الى التفكير فيها

واذا به قد شرع يغمغم ويمضغ صوته

فقلت له : « اسمع .. ان لاندرو ليس قصة مؤلفة تملكها أنت أو غيرك ، أنها ملكية عامة »

ففكر قليلا ، ثم طلب منى الاتصال بمديره . وهكذا تمت المفاوضة على الصفقة .. وكانت تقضى بأن يأخذ ويلز خمسة آلاف دولار ، والا يعود على أى التزام آخر . ووافق ويلز . ولكنه اشترط شرطا واحدا .. هو ان يكون من حقه بعد الاطلاع على الفيلم ان يطلب ظهور اسمه على الستار ، فى جملة تقول : « اقترح الفكرة أورسون ويلز » . ولم أفكر كثيرا فى هذا الأمر بسبب حماسى عندئذ ٠ ولو تنبأت بالمشاكل التى حاول فى النهاية أن يرتبها على ذلك ، لكنت قد صممت على الا يظهر اسمه اطلاقا على الستار

وتركت « الاصل والظل » جانبا الآن ، وبدأت أكتب « سيد فردو » ٠ وبعد ثلاثة أشهر قضيتها فى العمل ظهرت جوان بارى فى « تلال بيفرلى » واخبرنى رئيس خدمى انها اتصلت بنا تليفونيا فقلت له اننى لن أراها بأية حال

وعلى اثر ذلك توالت أحداث لم تكن مزعجة فقط ، وانما أيضا منذرة بالشر .. فلاننى رفضت مقابلتها أقدمت على اقتحام البيت ، وحطمت النوافذ ، وهددتنى بالقتل ،

وطالبت بنقود .. واضطررت فى النهاية أن استدعى البوليس .. وهو أمر كان ينبغى أن أفعله منذ وقت طويل ، بالرغم من كونه فرصة ثمينة للصحافة . على ان البوليس قدم لى أكبر مساعدة .. وابلغنى انه لن يوجه اليها تهمة التشرد اذا رغبت فى ان ادفع أجر عودتها الى نيويورك

ثم اكتشفت انها كانت متغيبة منذ عدة أسابيع عن مدرسة رينهارت للتمثيل . وعندما واجهتها بذلك فاجأتنى بأعلان أنها لا تريد أن تكون ممثلة ، وانها على استعداد لتمزيق العقد اذا اعطيتها خمسة آلاف دولار ودفعت أجر عودتها هى وامها الى نيويورك . فوافقت بسرور على مطالبها ، ودفعت أجر السفر والخمسة آلاف دولار ، وكنت سعيدا بالتخلص منها

وهكذا دفعت الاجر للمرة الثانية . وأنذرها البوليس أنه سيوجه اليها تهمة التشرد لو ظهرت مرة اخرى بالقرب من تلال بيفرلى

ولقد يبدو مؤسفا ان يأتى اسعد أحداث حياتى بعد هذه الواقعة المخجلة وفى التصاق بها اذا جاز هذا التعبير .. ولكن ظلال الاشياء دائما تغيب فى ظلال الليل قبل أن ينكشف الفجر عن شمس مشرقة

فقد حدث ذات يوم ــ بعد عدة اشهر ــ أن اتصلت بنا وكيلة للفنانين فى هوليوود ، اسمها مس مينا دالاس ، لكى تقول أن لديها عميلة تؤمن بصلاحيتها لدور بريدجت .. وهو الدور الرئيسى فى « الاصل والظل » . ولما كنت أعانى بعض المشقة فى اعداد «سيد فردو » . لصعوبة تصوير الدوافع التى تحرك القصة ، فقد اعتبرت حديث مس دالاس الهاما سماويا مباركا بأن أعاود النظر فى أمر تصوير « الاصل والظل » ، وان أدع مؤقتا « سيد فردو »

وهكذا طلبتها تليفونيا لاعرف المزيد من التفاصيل .

واتضح ان عميلتها هى مس اونا أونيل ، ابنــــة الكاتب المسرحى الشهير يوجين أونيل . ولم أكن فى حياتى قـــد قابلت يوجين أونيل ، ولكن جدية مسرحيـــاته أوحت الى بصورة غامضة عما يمكن ان تكون عليه ابنته .. فسألت مس دالاس باختصار : « هل فى استطاعتها أن تمثل ؟ »

فأجابت : لقد حصلت على بعض الخبرة بفضل الفرق الصيفية فى الشرق . ومن المستحسن أن تجرى لها اختبارا سينمائيا وتكشفها بنفسك . واذا كنت لا ترغب فى الزام نفسك بشيء ، فيمكنك ان تحضر الى بيتى لتناول الغداء ، وسأجعلها تأتى »

فذهبت مبكرا ، وما كدت ادخل غرفة الجلوس حتى تبينت فتاة شابة تجلس وحدها بجوار المدفأة . وبينما نحن فى انتظار مس دالاس ، قدمت لها نفسى قائلا اننى افترض انها مس أونيل . فابتسمت . وعلى عكس فكرتى المسبقة وجدت نفسى أتنبه الى جمال وضاء وسحر هادىء ، ورقة بالغة الجاذبية . وجلسنا ـ فى انتظار مضيفتنا ـ نتحدث

ثم جاءت مس دالاس اخيرا ، وقدمت كلا منا رسميا الى الآخر . وكنا حول ذلك الغداء أربعة : مس دالاس ومس أونيل وتيم روزنت وانا . ومع اننا لم نتحدث فى شئون العمل ، الا اننا حمنا حولهـــا . وقالت ان الدور النسائى فى « الاصل والظل » دور فتاة صغيرة الســـن جدا ، فأشارت مس دالاس بطريقة عابرة الى أن مس أونيل لم تتجاوز السابعة عشرة الا بقليل .. وعندئذ غاص قلبى فمع أن الدور يحتاج الى فتاة صغيرة ، الا أن الشخصية شديدة التعقيد وتحتاج الى ممثلة اكبر سنا وخبرة . ولهذا فقد صرفت النظر عنها بهدوء فيما بينى وبين نفسى

ولكن مس دالاس اتصلت بى تليفونيا بعد أيام ، لتعرف

ما اذا كنت سأفعل شيئا بشأن مس أونيل ٠٠ لان شركة فوكس مهتمة بها . فأسرعت فى هذه اللحظة اتعاقد معها. وكانت هذه هى البداية لما شاء القدر أن يكون عشرين عاما من السعادةالكاملة واعواما أخرى كثيرةفيما أرجو ..

ومع ازدياد معرفتى بأونا كانت تدهشنى طول الوقت روحها المرحة ، وتسامحها ٠ فهى قادرة دائما على أن ترى وجهه نظر الشخص الاخر ٠ وكان هذا – مع عديد من الاسباب الاخرى – هو ما جعلنى أقع فى غرامها ٠ ومع أنها كانت قد بلغت لتوها الثامنة عشرة ، الا أننى كنت واثقا من أنها غير معرضة لنزوات تلك السن ٠ فأونا كانت الاستثناء من القاعدة ، وان كنت قد خفت فى البداية من الفارق الكبير بين سنى وسنها ٠ غير أنها كانت مصممة كما لو كانت قد اهتدت الى الحقيقة ٠ وعلى هذا فقد قررنا أن نتزوج بعد الانتهاء من تصوير « الاصل والظل »

وكنت قد فرغت من اعداد المسودة الاولى للسيناريو ، وبدأت الان أستعد للدخول فى عملية الانتاج وأنا شـــديد الثقة بأن الفيلم سيحقق نجاحا كبيرا ..

ولكن ٠٠ عند هذه النقطة ظهرت بارى مرة أخرى فى المدينة ٠ وأعلنت لرئيس خدمي صراحة – عبر أســـلاك التليفون – آنها حامل منذ ثلاثة أشهر !

ولكنها فى اليوم التالى ظهرت مشرقة مبتهجة ، ودارت حول البيت والحديقة عدة مرات . وكان واضحا أنهـــا تتبع خطة موضوعة . وقد ظهر فيما بعد أنها ذهبت الى احـدى الصحفيات من محررات المـآسى ، فنصحتها بأن تعود الى البيت وتسعى الى أن يقبض عليها

وعندما تحدثت اليها شخصيا، وهددتها بابلاغالبوليس ما لم تغادر منطقة البيت ، كان ردها الوحيد انها ضحكت٠

ولما كنت قد بلغت آخر حدود قدرتى على احتمال مثل هذه البلطجة ، فقد امرت رئيس الخدم بأن يتصل بالبوليس تليفونيا

وما كادت تمضى ساعات حتى كانت العناوين الكبرى تغطى بالسواد وجه الصحف التى صلبتنى وسلختنى - وصورتنى فى ابشع الصور : شابان ولد طفلها الذى لم يولد بعد ، قد جعل البوليس يقبض عليها ، وتركها شريدة. وبعد أسبوع رفعت ضدى قضية اثبات بنوة الطفل . فاتصلت - على اثر هذا الاتهام - بمحامى الخاص واخبرته بأنه لم تكن لى علاقة بهذه المرأة بارى منذ سنتين

ولما كان يعلم أن فى نيتى انتاج (الاصل والظل) . فقد اقترح - من باب الحذر - ان أؤجل ذلك مؤقتا وان تعود أونا الى نيويورك . ولكننا رفضنا ان نأخذ بهذه النصيحة . ولم نقبل ان تتحكم فينا اكاذيب تلك المرأة بارى ، ولا عناوين الصحف . ولما كنا - أنا وأونا - قد تحدثنا بالفعل فى شأن زواجنا ، فقد قررنا ان نفعل ذلك فى التو واللحظة . وتزوجنا فى (كارنبتريا) وهى قرية صغيرة هادئة على مسافة خمسة عشر ميلا من (سانتا باربارا)

الفصل السابع عشر

عداء أمة بأكملها :

* محاكمتى : بلطجة قانونية

* مطلوب للتحقيق ، بعد البراءة !

* أزمة الفنانين المتحدين

* شابلن منكر للجميل .. ارسلوه الى روسيا

عندما عدنا الى لوس انجلس وصلتني انباء تثير القلق من صديقي القاضي (ميرفي) بالمحكمة العليا للولايات المتحدة .. الذي أخبرني بأنه اثناء وليمة غداء حضرها عدد من السياسيين ذوي النفوذ ألح أحدهم الى انهم قد عزموا على ان (ينالوا من شابلن) . وكتب ميرفي يقول :

ـ اذا حدثت لك مشاكل فالافضل هو ان تستأجر محاميا صغيرا غير مشهور ، لا محاميا مرتفع الاجر

على أن الحكومة الفيدرالية لم تتحرك ـ على أية حال ـ الا بعد مضي بعض الوقت . وكانت تساندها بالاجماع صحافة تعتبرني من وجهة نظرها اسوأ الانذال

وفي هذه الفترة كنا نستعد لقضية اثبات البنوة التي كانت قضية مدنية ولا شأن لها بالحكومة الفيدرالية .

واقترح (محامي الخاص) في قضية اثبات البنوة أن أجرى اختبارا للدم يمكن ـ اذا جاءت نتيجته في صالحي ـ ان يكون دليلا قاطعا على انني لست والد طفل باري . ثم جاء فيما بعد ينبئني بأنه وصل الى اتفاق مع محاميها . وكانت الشروط تقضي بأن توافق على اجراء اختبار الدم لها ولطفلها اذا اعطينها خمسة وعشرين ألف دولار ، وان تتنازل عن قضية أثبات البنوة اذا أظهر الاختبار انني لا يمكن ان اكون والد الطفل . وجعلني هذا العرض أثب واقفا . ولكن الفرصة كانت ضدي بنسبة ١٤ الى واحد،

لان كل عائلة من عائلات الدم يشترك فيها عدد كبير جدا من الناس . واوضح لى المحامى انه اذا كان دم الطفل من عائلة تختلف عن عائلة دم الام والاب المتهم معا، فانها تكون قد جاءت حتما من شخص ثالث

وبعد أن ولد طفل بارى ، بدأت الحكومة الفيدرالية اجراء تحقيق امام هيئة كبرى للمحلفين ، استجوبت فيه بارى بهدف ادانتى بتهم لم أستطع أن أتصور ماذا عسى أن تكون، ونصحنى الاصدقاء بأن ألجأ الى المحامى الجنائى الشهير (جيزلر) . ففعلت ذلك برغم نصائح القاضى ميرفى . وكانت هذه غلطة ، لانها جعلتنى ابدو كما لو كنت فى مأزق شديد . وعقد محامى الخاص اجتماعا مع جيزلر ليتباحثا فى الاساس الذى يمكن لهيئة المحلفين ان تقيم عليه الادعاء ضدى . وكان كلاهما قد سمع ان الحكومة تريد أن تثبت اننى خرقت قانون « مان »

كانت الحكومة الفيدرالية تلجأ — بين وقت وآخر — الى هذه الطريقة من طرق البلطجة القانونية لتشويه سمعة خصومها السياسيين . فالهدف الاصلى لقانون (مان) كان منع نقل النساء من ولاية الى أخرى بقصد استخدامهن فى الدعارة . وبعد الغاء الدعارة الرسمية لم تعد له فائدة من الناحية القانونية، ولكنه ظل يستخدم للفتك بالمواطنين فلو اصطحب رجل مطلقته وعبر بها الحدود الى ولاية اخرى ، ثم عاشرها هناك ، فانه يكون قد ارتكب خرقا لقانون مان ، وصار معرضا للحكم عليه بالسجن خمس سنوات . وقد كانت هذه الحيلة الزائفة من حيل الانتهازية القانونية هى التى اقامت على أساسها حكومة الولايات المتحدة دعواها ضدى

وكان طفل بارى قد كبر الان الى الحد الذى يسمح باجراء اختيار الدم .. فتم اختيار عيادة للتحليل بالاتفاق بين محاميها ومحامي ، وتقدمنا للاختبار انا وبارى وطفلها ..

واتصل بى المحامي فيما بعد وصوته ينبض بالحيوية :

ـ شارلى ، لقد برئت ساحتك ·· ان اختبار الدم أثبت انك لا يمكن ان تكون الوالد

فقلت بانفعال :

ـ ان هذا لعقاب

واثار النبأ ضجة مؤقتة فى الصحف فقالت احداها : (برئت ساحة شارلى) وكتبت أخرى : (اختبار الدم يقطع بأن شارلى ليس الاب)

ومع أن نتيجة اختبار الدم سببت ارتباكا للحكومة الفيدرالية ، الا انها واصلت دعواها ضدى

كانت هناك اربع تهم موجهة الى اثنتان بحكم قانون مان ، واثنتان بحكم قانون تافه لم يسمع به أحد على الاطلاق منذ الحرب الاهلية .. وتتلخصان فى اننى قد اعتديت على حقوق مواطن . وحاول جيزلر فى البداية أن يصل الى شطب القضية كلها . ولكن ذلك لم يكن غير اجراء شكلى · فقد كان احتمال نجاحه فى المحاولة كاحتمال صرف المتفرجين من السيرك بعد ان دفعوا اثمان التذاكر ..

واستغرقت المحاكمة عدة أيام . وبالاضافة الى ماكانت تسببه لى من توتر وقلق ، كان هناك الروتين الممل الذى يقضى بأن استيقظ فى السابعة صباحا ، ثم أخرج فورا بعد الافطار لان المسافة ـ فى زحام المرور فى لوس انجلس ـ

تستغرق ساعة بالسيارة ، وان اصل فى الموعد بالضبط قبل بدء الجلسة بعشر دقائق ..

وأخيرا اشرفت المحاكمة على نهايتها ووافق كل من الاتهام والدفاع على أن يلخص مرافعته فى ساعتين ونصف ساعة . ولم تكن لدى أدنى فكرة عما يمكن ان يتكلموا عنه طول هذا الوقت . فمن وجهة نظرى كان واضحا تمام الوضوح ، وقاطعا ، ومجسدا ، ان دعوى الحكومة قد انهارت . أما احتمال الحكم على بعشرين سنة فيما لوثبتت اداتنى فى جميع التهم فلم تخطر ببالى على الاطلاق بالطبع . وان كان القاضى قد لخص القضية للمحلفين تلخيصا شعرت بأنه كان يمكن أن يكون اقل غموضا

وهمس جيزلر بحذر ونحن نغادر قاعة الجلسة :

ـ لا يمكننا اليوم أن نخرج من مبنى المحكمة الا بعد اعلان قرار المحلفين

ثم أضاف متفائلا :

ـ نستطيع ان نجلس فى الشرفة فى الخارج ، ونتمشى !

كانت الساعة الآن الواحدة والنصف وفى الخامسة الا الربع دق الجرس معلنا ان المحلفين قد وصلوا الى قرار . فوثب قلبى وثبة هائلة . وبينما نحن ندخل فى القاعة همس جيزلر بسرعة :

ـ مهما كان القرار فلا تبد أى انفعال

وغصت القاعة بسرعة ، وصارت مشحونة بالتوتر . ولكنها لسبب ما ظهرت بمظهر الهدوء والثبات بالرغم من أن قلبى كان ينبض فى حلقى

ودق كاتب المحكمة ثلاث دقات تعلن عن دخول القاضى، فوقفنا جميعا . وبعد ان عاد الكل الى مقاعدهم دخل

المحلفون ، وقدم رئيسهم وثيقة الى كاتب المحـــكمة .. بينما جلس جيزلر مطأطىء الرأس ، يحملق فى قـدميه ، ويتمتم بعصبية من بين أسنانه :

ــ اذا كان القرار بالادانة فانه سيكون أسوأ تطبيـــق للعدالة عرفنه فى حياتى !.. وظل يكرر :

ــ سيكون أسوأ تطبيق للعدالة عرفته فى حياتى !

وكان كاتب المحكمة الآن يقرأ الوثيقة . ثم دق بالمطرقة ثلاث مرات . ومضى يعلن فى الصمت المتوتر :

ــ شارلى شابلن ، القضية رقم ٣٣٧٠٦٨ جنايات .. عن التهمة الاولى (ثم سكت سكتة طويلة) : غـــير مــذنب !

فارتفعت صرخة مفاجئة من بين المتفرجين ، ثم عاد صمت مفاجىء فى انتظار الكاتب وهو يستطرد :

ــ عن التهمة الثانية .. غير مذنب !

وانفجر الجمهور فى لوثة من الجنون ، وما كنت أعرف على الاطلاق ان لى كل هذا العدد من الاصدقاء ــ حتى لقد اخترق بعضهم حاجز القفص الحديدى واحتضنونى وقبلونى ..

ثم وجه القاضى الى بضع كلمات :

ــ مستر شابلن . أن وجودك فى هذه القاعة لم يعد له داع .. فأنت الان حر

ثم بسط لى يده من فوق المنصة وهنأنى . وكذلـك فعل ممثلو الاتهام . وعندئذ همس جيزلر :

ــ اذهب الآن وصافح المحلفين

أما اونا التى كانت حاملا فى شهرها الرابع ، فقـــد كانت جالسة فى حديقة البيت وحدها عندما سمعت النبأ فى الراديو .. فأغمى عليها

وفى ذلك المساء تناولنا العشاء فى هدوء فى البيت .. انا واونا وحدنا : لا صحف ، ولا محادثات تليفونية . فلم أكن أريد ان ارى او اتحدث الى أى انسان . كنت أشعر بنفسى مجوفا من الداخل ، جريحا ، عاريا عن الكرامة ، حتى وجود خدم المنزل كان يشعرنى بالحرج

وبعد ذلك بيوم او يومين قال لى (ليون فيوشتوانجر) مداعبا :

ـ انك ستعيش فى التاريخ الامريكى باعتبارك الفنان المسرحى الوحيد الذى أثار العداء السياسى لامة بأكملها !

كانت أونا قد اعترفت لى بعد زواجنا بقليل بأنها لا ترغب فى ان تكون ممثلة ، سواء على المسرح او فى السينما فسرنى هذا النبأ ، اذ كان معناه اننى اخيرا عثرت على زوجة ، لا على فتاة تسعى الى بناء مستقبل خاص

وعلى اثر ذلك تركت فيلم « الاصل والظل » جانبا ، وعدت الى العمل فى اعداد « مسيو فيردو » الى أن قاطعتنى الحكومة بفظاظتها البالغة

وبينما انا أعيد تقطيع « فيردو » ، تلقيت رسالة تليفونية من احد ممثلى سلطات الولايات المتحدة يقول فيها أن لديه أمرا باستدعائى الى واشنطون للمثول أمام « لجنة النشاط غير الامريكى » . وكان عدد الذين استدعوا منا تسعة عشر

وفى ذلك الوقت كان السناتور « بيبر » ممثل ولاية فلوريدا موجودا فى لوس انجلس . فاقترح البعض ان نقابله لنسأله المشورة . ولكننى لم اذهب لان وضعى كان مختلفا : فأنا لست أمريكى الجنسية . وفى ذلك الاجتماع اتفق الجميع على أن يتمسكوا بحقوقهم الدستورية اذا ما استدعوا الى واشنطون . « وقد ارسل اولئك الذين تمسكوا بها الى السجن لمدة عام بتهمة اهانة المحكمة »

وكان طلب الاستدعاء يشير الى اننى سأخطر بموعد حضورى الى واشنطون فى خلال عشرة ايام ٠ ولــكن سرعان ما وصلت بعد ذلك برقية تقول ان حضورى قد تأجل لمدة عشرة ايام اخرى

وبعد التأجيل الثالث ارسلت اليهم برقية اقول فيها ان لدى جهازا ضخما من الناس معطلا عن العمل ،يكلفنى مبالغ طائلة ٠ وان لجنتهم كانت في هوليوود اخـــيرا؟ تستجوب صديقى هانز ايزلر ، وكان فى استطاعتها ان تستجوبنى فى نفس الوقت توفيرا للاموال العــامة ٠ ثم ختمت البرقية قائلا : « على اننى من باب التسهيل عليكم ساخبركم بما اعتقد انكم تريدون معرفته ٠ اننى لست شيوعيا ٠ ولم يحدث ان انضممت الى أى حزب او منظمة فى حياتى ٠ وانا من اولئك الـــذين تسمونهم « دعاة السلام » ٠ وامل الا يضايقكم هذا ٠ فهل تسمحون اذن بأن تحددوا بشكل نهائى متى سأدعى الى واشنطون ٠ المخلص شارلى شابلن »

وعلى أثر هذا تلقيت جوابا ادهشنى لهجته المهذبة ، يقول ان حضورى الى واشنطون لن يكون ضروريا ، وان فى استطاعتى ان اعتبر المسألة منتهية

لم أكن ـ طوال مشاكلى الشخصية ـ قد أوليت انتباها كبيرا الى اعمال « الفنانين المتحدين » ٠ والان جاء محامى الخاص ينذرنى بأن الشركة تعانى عجزا مقداره مليــون دولار ٠ وكانت فى أيام ازدهارها قد سجلت فى العام الواحد ارباحا تتراوح ما بين اربعة وخمسة ملايين ، وأن كنت لا اتذكر اننى حصلت منها على ارباح اسهمى الا مرتين ٠٠

ولكن حملة اسهم « الفنانين المتحدين » راحوا يبيعون اسهمهم للشركة واحدا بعد الاخــــر ، حتى كادت تفلس

نتيجة ما دفعته لهم • وبهذه الطريقة فوجئت بنفسى أملك نصف شركة مدينة بمليون دولار ، ومارى بيكفورد تملك النصف الثانى • وكتبت لى مارى تعبر عن انزعاجهـــا بسبب ان جميع البنوك ترفض ان تفتح لنا مزيدا من الاعتمادات ولكننى لم اكترث كثيرا ، فقد سبق ان ركبتنا الديون قبل ذلك ، وكان يكفى دائما فيلم واحد ناجح لكى نجتاز الازمة • وبالاضافة الى ذلك ، فاننى كنت قداكملت لتوى فيلم مسيو فيردو ، الذى كنت اتوقع ان يســـجل نجاحا هائلا فى الايرادات • وكان ممثلى فى الشركة – ارثر كيللى – يتوقع لهذا الفيلم دخلا يبلغ ١٢ مليون دولار على الاقل • ولو صح هذا التوقع لغطى المبلغ ديون الشركة واضاف اليها ربحا مقداره مليون دولار

وأقمت عرضا خاصا لاصدقائى فى هوليوود ، ما كاد ينتهى حتى وقف توماس مان وليون فوشترانجر وغيرهما وراحوا يصفقون تصفيقا دام اكثر من دقيقة

رحلت الى نيويورك وكلى ثقة • ولكننى ما كدت اصل حتى هاجمتنى على الفور جريدة الديلى نيوز :

لقد جاء شابلن لحضور افتتاح فيلمه • وانى لاتحداه – بعد ان اتخذ منا موقف • « رفيق السفر » – ان يرينا وجهه فى مؤتمر صحفى • فاننى ساكون حاضرا لاسأله سؤالا او سؤالين محرجين

وفى الصباح التالى اعددنا قاعة واسعة فى الفنـــدق لاستقبال الصحافة الامريكية • وظهرت بعد تقـــديم الكوكتيل ولكننى شممت فى الجو رائحة الشر • ووقفت اتحدث من وراء منضدة صغيرة فقلت وانا اصطنع اقصى ما يمكننى من جاذبية :

– سيداتى وسادتى ، كيف حالكم ؟ اننى هنا لكى

أزودكم بكل ما قد يعنيكم من الحقائق حول فيلمى وحول مشاريعى المستقبلة

فلبثوا جميعا صامتين . فقلت وانا ابتسم :

ـ لا تتحدثوا كلكم مرة واحدة

واخيرا قالت واحدة من الصحفيات فى الصف الاول :

ـ هل انت شيوعى ؟

فأجبت بلهجة قاطعة :

ـ كلا . السؤال التالى من فضلكم

ثم بدأ يغمغم صوت ما .. فاعتقدت انه قد يكون صديقنا محرر الديلى نيوز ، ولكن هذا المحرر كان لافتا للنظر بغيابه وكان المتحدث بدلا منه شخص كالح المظهر ، يرتدى معطفه، ويميل على أوراق يقرأ منها

قلت له :

ـ معذرة . سيكون عليك ان نعيد قراءة ذلك مرة اخرى، فاننى لا أفهم كلمة مما تقول

فبدأ من جديد :

ـ نحن المحاربون القدماء الكاثوليك

فقاطعته قائلا :

ـ لست هنا لكى اجيب على اى محاربين كاثوليك . إن هذا مؤتمر صحفى

وارتفع صوت آخر :

ـ لماذا لم تتجنس وتتحول الى مواطن ؟

فأجبت :

ـ لست أرى داعيا الى تغيير جنسيتى . فأنا اعتبر نفسى مواطنا عالميا

وأثار ذلك ضجة . وحاول اثنان او ثلاثة أن يتكلموا

فى وقت واحد . ولكن صوت احـــــدهم تغلب على أية حال ..

ـ لكنك تكسب ثروتك فى أمريكا

قلت وانا ابتسم :

ـ حسنا . اذا كنت تنظر الى المسألة على أساس نفعى، فلنجعل الامور واضحة . ان تجارتى عالمية . وسبعون فى المائة من دخلى اكسبه من الخارج . بينما تحصل الولايات المتحدة منه على ضرائبها كاملة مائة فى المائة .. وهكذا ترى اننى ضيف سخى جدا فيما يدفع

ومرة اخرى عادت رابطة الكاثوليك تطل برأسها :

ـ سواء كنت تكسب نقودك هنا او هناك ، فاننا نحن الذين نزلنا على سواحل فرنسا نستنكر ألا تحمل جنسية هذه الامة ..

قلت :

ـ انك لست الفتى الوحيد الـــــذى هبط على تلك الشواطىء . فوالداى كانا هناك ايضا فى جيش الجنرال باتون ، وفى الصفوف الاولى ، وهما لا يطبلان لهـــــذه الحقيقة ولا يستغلانها كما تفعل أنت

وسأل صحفى آخر :

ـ هل تعرف هانز ايزلر ؟

ـ نعم .. انه صديق عزيز جدا .. وموسيقار عظيم

ـ هل تعلم انه شيوعى ؟

ـ لا يعنينى ماذا يكون . ان صداقاتى لا تقـــوم على اسس سياسية

فقال آخر :

ـ ومع ذلك يبدو انك تحب الشيوعيين

ـ ليس لاحد ان يقول لى من احب ومن أكره . اننا لم ننزل بعد الى هذا المستوى

تم ارتفع من قلب الموجة العارمة صوت يقول :
ـ ما شعور الانسان حين يكون فنانا أنرى العالم بكل هذه السعادة ، وكل هذا الفهم للناس ، للبسطاء ، ثم يهان وتستثار ضده الكراهية والازدراء من جانب من يطلـــق عليهم اسم ممثلى الصحافة الآمريكية ؟
فكانت اذنى صماء عن كل تعبير يدل على العطف الى حد اننى اجبت بلهجة قاطعة :
ـ اسف • لم اكن منتبها • عليك ان تعيد السؤال مرة أخرى ••
فلكزنى مدير دعايتى هامساً :
ـ هذا الفتى فى صفك • لقد قال شيئا رائعا
كان جيم اجى ، الشاعر والروائى الامريكى • وكان يعمل فى ذلك الوقت كاتبا للموضوعات الخاصة وناقدا فى مجلة تايم
وارتبكت تماما ، وفقدت توازنى • وقلت :
ـ اننى آسف • ولكنى لم أسمعك فهل تسمح باعادة ما قلت مرة اخرى ؟
فقال فى شىء من الحرج :
ـ لا ادرى ان كنت سأستطيع
ثم كرر تقريبا نفس الكلمات :
ولكننى عجزت عن التفكير فى أى جواب • فهززت رأسى وقلت :
ـ لا تعليق • ولكن أشكرك
ولم اعد بعد ذلك اصلح لشىء • فقد سلبتنى كلماته الطيبة روح القتال وقلت :
ـ سيداتى وسادتى ، اننى اسف • فقد كنت اظن ان هذا المؤتمر سيكون بشأن فيلمى ، ولكنه تحول بدلا من

ذلك الى مناظرة سياسية . ولهذا فليس عنـــدى مزيد أقوله ..

واحسست بعد الاجتماع بمرارة شديدة فى داخلى ، فقد ادركت اننى اواجه عداء مسعورا لى

على اننى برغم ذلك لم استطع ان اصدق . فأنا قد تلقيت بريدا رائعا يهنئنى على فيلم الدكتاتور العظيم الذى حقق دخلا اكبر من اى فيلم اخر اخرجته ، برغم اننى قبل ذلك الفيلم واجهت دعاية مضادة كبيرة . ثم اننى كنت على ثقة من نجاح مسيو فيردو ، وكانت ادارة « الفنانين المتحدين » تشعر بنفس الشعور

كان جو من التوتر يسود صالة السينما ليلة الافتتاح جو يوحى بأن المتفرجين قد جاءوا ليثبتوا شيئا ، فما كاد الفيلم يبدأ حتى استقبله ــ بدلا من اللهفة ودبيب السرور المعتاد فى الماضى ــ تصفيق عصبى متناثر ، تصـــاحبه اصوات تطالب بالسكوت . ومع أننى اكره أن أعترف بذلك ، فان هذه الاصوات القليلة جرحتنى فى الواقـــع اكثر من كل ما واجهتنى به الصحافة من عداء

ومع استمرار عرض الفيلم بدأ ينتابنى القلق . نعم كانت هناك ضحكات ، ولكن متفرقة . لم تكن الضحكات التى عرفتها فى الماضى ، ضحكات « البحث عن الذهب » و « اضواء المدينة » و « كتفا سلاح » . وانما ضحكات لها روح التحدى فى مواجهة الجانب الذى يطالب بالسكوت وبدأ قلبى يغوص بين جنبى . ولم استطع البقاء على مقعدى اكثر من ذلك . فهمست لاونا :

ــ سأخرج الى الردهـــة ، فليس فى استطاعتى ان أحتمل ..

فضغطت على يدى . وأحسست بورقة البرنامج التى

كورتها بحيث يتعذر اصلاحها تؤلم كف يدى ، فألقيت بها تحت المقعد • ثم تسللت صاعـــدا فى الممر حتى بلغت الردهة ، وقد مزقنى التـردد بين أن أبقى وأنصت الى الضحكات أو أن أفر من كل شىء ثم تسللت صاعـــدا الى البلكون لارى ماذا يجرى هنـــاك • كان أحد المتفرجين يضحك أكثر من الاخرين ، وكان صديقا ولا شك ، ولكن ضحكاته كانت عصبية ، كأنما يريد أن يثبت بها شيئا • وكذلك كان الحال فى الصالة ، وفى البلكون

وظللت ساعتين أتمشى فى الردهة ، وفى الشارع ، وحول دار السينما ، ثم أعود لالقى نظرة على الفيلم الذى بدا وكأنه سيظل دائرا الى الابد • ولكنه انتهى آخر الامر وكان المحرر الصحفى ايرل ويلسون ـ وهو رجل نظيف مهـــذب ـ من أوائل الذين التقيت بهم فى الردهة ، فقال لى :

ـ لقد أعجبنى أنا ••

وضغط على كلمة (أنا)

ثم جاء ممثل فى الشركة أرثر كيللى وقال :

ـ انه بالطبع لن يربح الاثنى عشر مليونا

فقلت مازحا :

ـ لا مانع عندى من الاكتفاء بنصفها

واستمر عرض مسيو فردو ـ لدهشتى الشـــديدة ـ ستة أسابيع بنجاح كبير فى نيويورك • ولكن ايراداته بدأت تهبط فجأة • وعندما سألت جراد ســـيرز ـ من الفنانين المتحدين ـ عن ذلك أجابنى :

ـ ان أى فيلم من أفلامك لابد أن يحقق ايرادا كبيرا فى الاسابيع الثلاثة أو الاربعة الاولى ، لان لك جمهورك القديم من المعجبين • ولكن الجمهور العادى يأتى بعد ذلك •

والصحافة قد ظلت ـ بصراحة ـ تهاجمك طوال أكثر من عشر سنوات ، ولابد أن يكون لذلك أثره • وهذا هو السبب في الهبوط

قلت :

ـ ولكن الجمهور العادى يتذوق الفكاهة بلا شك..

فقدم لى نسخا من الديلى نيوز ، ومن صحف هيرست ، قائلا :

ـ أنظر .. هذا هو ما ينشر فى طول البلاد وعرضها..

كانت فى احداها صورة للرابطة الكاثوليكيـــــة فى نيوجرسى ، وقد نظمت طابورا يدور حول دار السـينما التى تعرض مسيو فردو فى الولاية ، ومعه لافتــــات تقول :

« شابلن رفيق سفر ••

« اطردوا الاجنبى من البلاد ••

« طال بقاء شابلن اكثر مما يجب كضيف يـــدفع ثمن اقامته ••

« شابلن منكر للجميل وعاطف على الشيوعيين ••

« أرسلوا شابلن الى روسيا »

وعندما يداهم الانسان عالم من المتاعب وخيبة الامل ، فانه ـ اذا لم يلجأ الى اليأس ـ يتجه اما الى الفلسفة واما الى الفكاهة • فلما قدم لى جراد صورة طابور المتظاهرين وقد خلت من متفرج واحد خارج دار الســــينما قلت مازحا :

ـ واضح انها التقطت فى الخامسة صباحا

على أن مسيو فردو كان ـ برغم ذلك ـ يحقق دخلا فوق المعتاد حيثما يعرض بغير تدخل

وكانت شبكات دور العرض الكبرى فى كافة أنحـــاء

البلاد قد حجزت الفيلم ولكنها بدأت تلغى حفلاتها بعد أن تلقت رسائل تهديد من الرابطه الامريكية ومن جماعات أخرى ارهابية

وكان للرابطة أسلوب فعال ترهب به العارضين : هو التهديد بمقاطعة دار السينما لمدة عام كامل اذا هى عرضت فيلما لشابلن ، أو أية أفلام أخرى لا ترضى عنها الرابطة ٠ وقد حدث فى (دنفر) أن جرى افتتاح الفيلم ذات ليلة بنجاح كبير ، ثم أوقف فى الليلة التالية نتيجة لهـــذا التهـديد

***

وتبخرت كل الامال فى الحصول على ١٢ مليون دولار من فيلم مسيو فردو بل كان واضحا أنه لن يغطى مصاريفه الا بصعوبة ، وان شركة الفنانين المتحدين تجتاز ـ لهـــذا السبب ـ أزمة يائسة ٠ وأصرت مارى من باب الاقتصاد فى النفقات على فصل ممثلى فى الشركة ارثر كيلى ٠ وثار غضبها عندما ذكرتها بأننى أملك نصف الشركة أنا أيضا ، وقلت لها :

ـ اذا ذهب الذين يمثلوننى ، فيجب أن يذهب الذين يمثلونك ٠٠

وأدى ذلك الى صدام أدى فى النهاية الى أن أقول لها :

ـ اسمعى ٠ ان على واحد منا أن يبيع أو يشـترى ٠ ولك أن تحددى الثمن

ولكن مارى رفضت أن تحدد ثمنا ٠ وكذلك رفضت أنا

وأخيرا جاء ينقذنا جماعة من المحامين يمثلون احـــدى شبكات دور العرض فى الولايات الشرقية ٠ كانوا يريدون استلام ادارة الشركة ، مع استعدادهم لدفع ١٢ مليون دولار : منها سبعة ملايين نقدا ، وخمسة ملايين فى شكل

سندات • فكان ذلك هبة من السماء

وقلت لماري :

ـ اسمعي • ادفعي لي الآن خمسة ملايين نقدا ،فأنسحب وأترك لك الباقي

ووافقت ماري • وكذلك وافقت الشركة

وبعد أسابيع من المفاوضات تم وضع الوثائق التي تقضي بذلك • واتصل بي أخيرا محامي الخاص ليقول :

ـ بعد عشر دقائق يا شارلي ستتسلم الخمسة ملايين دولار

ولكنه بعد عشر دقائق اتصل بي تليفونيا :

ـ الغيت الصفقة ياشارلي ! فقد أمسكت ماري بالقلم في

ـ بعد عشر دقائق يا شارلي ستتسلم الخمسة

هو على خمسة ملايين دولار الان ، وأظل أنا أنتظر عامين قبل أن أحصل على نصيبي ؟ وقد ناقشتها قائلا انها ستحصل على سبعة ملايين •• أي على مليوني دولار أكثر منك • ولكنها تحججت بأن ذلك سيخلق لها متاعب بشأن ضريبة دخلها

وقد كانت هذه فرصتنا الذهبية . واضطررنا فيما بعد أن نبيع بمبلغ أقل كثيرا من ذلك

***

عدنا الى كاليفورنيا ،فبدأت تداعبني الافكار من جديد • ذلك انني كنت متفائلا ، وغير مقتنع بأنني فقدت تماما عواطف الشعب الامريكي، أو بأن لدى هذا الشعب من الوعي السياسي أو العجز عن تذوق الفكاهة ما يجعله يقاطع أي انسان قادر على تسليته . كانت لدي فكرة ، وتحت الحاحها لم يكن يعنيني قيد خردلة ماذا ستكون النتيجة . فالفيلم يجب أن يظهر

ان العالم بصرف النظر عن أى طلاء حديث يصطنعه ، يحب دائما قصص الغرام . فالعاطفة ـ كما يقول هازليت ـ أكثر جاذبية من العقل ، كما أنها أيضا أكثر مساهمة فى الاعمال الفنية . والفكرة التى عندى كانت قصة غرامية وهى بالاضافة الى ذلك مناقضة تماما لروح التشـاؤم الساخر فى مسيو فردو . على أن الاهم من ذلك هو أن الفكرة كانت تلهبنى

واستغرق اعداد (أضواء المسرح) ثمانية عشر شهرا

وعندما فرغت منه كان قلقى بشأن نجاحه أقل من أى فيلم أنتجته فى حياتى . وأقمنا عرضا خاصا لاصدقائنا فكانوا جميعا متحمسين له . ولهذا بدأنا نفكر فى الرحيل الى أوربا ، اذ أن أونا كانت متلهفة الى الحاق الاطفال بالمدرسة هناك ، بعيدا عن تأثير هوليوود

وكنت قد قدمت طلبا قبل ذلك بثلاثة أشهر للتصريح لى بالعودة الى البلاد ، ولم أتلق ردا عنه . ولكن مع ذلك واصلت اتخاذ الترتيبات الخاصة بمصالحى الماليـة استعدادا للسفر

وكانت كل ضرائبى قد تم تقديرها وتسويتها . ولكن ما كادت مصلحة الضرائب تسمع أننى مسافر الى أوربا حتى اكتشفت اننى مدين لها بالمزيد من المال . وحددت مبلغا يتألف من ستة أرقام ، مطالبه اياى بأن أودع لحسابها مليونى دولار أى عشرة أضعاف المبلغ الذى تطالب به . وألهمتنى غريزتى ألا أودع شيئا ، وأن أصمم على رفع الموضوع الى القضاء فورا . فأدى هذا الى تسوية سريعـة فى مقابل مبلغ اسمى . وعندما لم يعد لهم أى ادعاء قبلى ، عدت أطلب من جديد تصريح العودة الى البلاد ، وانتظرت عدة أسابيع ، ولكن بلا جواب . ولهذا أرسلت خطابا الى واشنطون ، أخطرهم فيه بأننى فى كافة الاحوال أنوى

الرحيل ، حتى اذا لم تكن بهم رغبة لمنحى تصريح العودة
وبعد ذلك بأسبوع تلقيت مكالمة تليفونيـــه من ادارة الهجرة ، تقول انهم يحبون أن يسألونى عدة أســئلة أخرى • فهل يمكنهم الحضور الى المنزل ؟
فأجبت :
ـ بكل سرور
وجاء ثلاثة رجال وامرأة . وكانت المرأة تحمــل آلة اختزال كاتبة ، والاخرون يحملون حقائب أوراق صــغيرة مربعة ، تخفى فى داخلها ولا شك آلات تســجيل وكان المستجوب الرئيسى رجلا طويلا ، نحيفا ، فى الاربعين من عمره تقريبا • وكان أنيقا ، واثقا من نفسه • وأما أنا فأدركت أنهم أربعة الى واحد ، وان الواجب على هو أن أستدعى محامى الخاص للحضور • ولكن لم يكن لدى ما أحرص على اخفائه
وقدتهم الى الشرفة المشمسة ، حيث أخرجت المرأة آلتها الكاتبة ووضعتها على مائدة صغيرة ، بينما جلس الاخرون على الكنبة واضعين أمامهم حقائب آلات التسجيل •وأخرج المستجوب دوسيها طوله قدم ، وضعه بجواره فى أناقة على المائدة ، بينما جلست أنا أمامه • ثم بدأ يعبر بعينيه على الدوسيه صفحة صفحة
ـ هل شارلى شابلن هو اسمك الحقيقى ؟
ـ نعم ••
ـ يقول بعض الناس أن اسمك •• (وذكر اســما أجنبيا جدا) • وانك من جاليشيا
ـ كلا • ان اسمى ، كاسم أبى ، هو شارلى شابلن • وقد ولدت فى لندن بانجلترا
ـ أتقول انك لم تكن شيوعيا على الاطلاق ؟
ـ على الاطلاق ولم يسبق لى أن انضممت الى منظمــة

سياسية فى حياتى
ـ سبق أن ألقيت خطبة قلت فيها « ايها الرفاق » فماذا كنت تعنى بذلك
ـ كنت أعنى الكلمة بالضبط • ابحث عنها فى القاموس .. فليس للشيوعيين حق احتكار الكلمة ..
واستطرد الرجل يتابع استجوابه ، ثم سأل فجأة :
ـ هل ارتكبت جريمة الزنا فى حياتك ؟
فأجبت :
ـ اسمع • اذا كنت تبحث عن حجة قانونيه لابعادى عن البلاد فلتتفل لى ، وسأرتب شئونى على هذا الاساس • لاننى لا أرغب فى أن أبقى كشخص • (غير مرغوب فيه) فى أى مكان
قال :
ـ أوه ، كلا • انه سؤال مثبت فى أى تصريح من تصاريح العودة
فسألته :
ـ ما تعريف كلمة الزنا ؟
ومضينا كلانا نبحث عنها فى القاموس ثم قال هو :
ـ فلنعتبر أنها « معاشرة زوجة رجل آخر »
ففكرت لحظة ثم قلت :
ـ لم يحدث فى حدود علمى
ـ اذا حدث غزو لهذه البلاد ، فهل تحارب دفاعا عنها ؟
فأجبت :
ـ بالطبع • فأنا أحب هذه البلاد • انها بيتى • وقد عشت هنا أكثر من اربعين عاما
ـ ولكنك لم تتجنس أبدا
ـ ليس هناك قانون يحرم ذلك • وأنا على أية حال أدفع ضرائب هنا

ـ ولكن لماذا تتبع خط الحزب ؟
ـ قل لى ما هو خط الحزب أقل لك ما اذا كنت أتبعه أم لا ..
وتلت ذلك فترة صمت ، قطعتها بقولى :
ـ أتعلم كيف تورطت فى كل هذه المتاعب ؟
فهز رأسه .. فقلت :
ـ بسبب مجاملتى لحكومتكم
فرفع حاجبه فى دهشة :
ـ كان على سفيركم فى روسيا ، مستر جوزيف ديفيز ، أن يلقى كلمة فى سان فرانسيسكو لصالح المعونة الحربية للروس • ولكنه أصيب فى آخر لحظة بالتهـــاب فى الحنجرة • وطلب منى مسئول كبير فى حكومتكم أن أقدم خدمة له وأتكلم بدلا منه • ومنذ ذلك الوقت ويدى تلوى وتخدش
ودام استجوابى ثلاث ساعات
وبعد ذلك بأسبوع خاطبونى تليفونيا مرة أخـــرى ، وطلبوا منى أن أذهب الى ادارة الهجرة • وأصر محامى على الذهاب معى ، اذ قد يرغبون ـ على حد قوله ـ فى أن يوجهوا الى مزيداً من الاسئلة
فلما وصلت ، ما كان يمكن أن يستقبلونى بود أكثر مما استقبلونى به • وتحدث الى رئيس ادارة الهجرة ـ وهو شخص عطوف فى منتصف العمر ـ بلهجة أقـــرب الى المواساة :
ـ يؤسفنى أننا أخرناك يا مستر شابلن • ولكننا الان وقد انشأنا فرعا لادارة الهجرة فى لوس انجلس ، سوف نتصرف بمزيد من السرعة ، دون أن نضطر الى ارسال الطلبات من واشنطون واليها • والان ليس لدينا غير سؤال واحد يا مستر شابلن ـ ما طول الفترة التى ستغيبها ؟



شارل وزوجته اونا واولاده فى حديقة بيته

فأجبت : ليس أكثر من ستة أشهر • انهـــا مجرد أجازة ••

ـ اذا بقيت في الخارج أكثر من ذلك ، فسيكون عليك أن تطلب مد المهلة

ثم وضع وثيقة على المائدة ، وغادر الغرفة • ونظر المحامى بسرعة اليها ثم قال :

ـ انها هى ! انه التصريح !

نهاية الملحمة

كنا فى يوم سبت ، وسنرحل صباح الاحد بالقطار الى نيويورك • وكنت أريد أن تكون خزانة ودائعى فى البنك تحت تصرف أونا فى حالة حدوث أى طارىء لى ، اذ أن الخزانة كانت تضم معظم ثروتى • ولكن أونا ظلت تؤجل مرة بعد مرة توقيع الاوراق فى البنك • والان كان يومنا الاخير فى لوس انجلس والبنوك ستغلق أبوابها بعد عشر دقائق فقلت لاونا :

ـ أسرعى •• لم يبق أمامنا غير عشر دقائق

ولما كانت أونا فى مثل هذه المسائل تمتاز بالكسل ، فقد قالت :

ـ لماذا لا ننتظر الى حين عودتنا من الأجازة ؟

ولكننى صممت • وكان خيرا ما فعلت اذ لولا ذلك لكان مستحيلا أن نقضى بقية عمرينا فى صراع قانونى من أجل اخراج ثروتنا من البلاد !

أصبحت الحياة على مستوى آخر بعد رحيلنا من أمريكا• ففى باريس وروما كان استقبالنا كالابطال الغزاة ودعانا الرئيس فنسفت أوريول الى الغداء فى قصر الاليزيه • كما دعينا الى غداء آخر فى السفارة البريطـــانية ثم رفعت الحكومة الفرنسية وسام الليجيون دونيه الذى أحمله الى مرتبة (فارس) • وفى نفس اليوم عينتنى جمعية المؤلفين والموسيقيين المسرحيين عضوا فخريا بها •

وحضر حفلة افتتاح أضـــواء المسرح جمهور من أبرز الشخصيات ، من بينهم أعضاء الوزارة الفرنسية والسفراء الاجانب ، وان كان السفير الامريكى لم يحضر

وفى الكوميدى فرانسيز كنا ضيفى الشرف فى عرض خاص لمسرحية موليير (دون جوان) ٠٠ التى قام بأدائها أعظم فنانى فرنسا ، وفى تلك الليلة أبقيت نافورات قصر (رويال) مضاءة يتدفق منها الماء ، واستقبلنا ـ أنا وأونا ـ طلبة الكوميدى فرانسيز فى ثياب القرن الثامن العشر ، ورافقونا بالمشاعل فى أيديهم الى « الجراند سيركل » ٠٠ حيث كان يحتشد أجمل نساء أوربا كلها

وفى روما حظينا أيضا بنفس الاســـتقبال ، وتمتعت بنفس التكريم ، والاوسمة ، واستقبلنى رئيس الجمهورية والوزراء ، وقد حدثت فى تلك المناسبة واقعة طريفة أثناء حفلة العرض الخاص لفيلم « أضواء المسرح » ٠ اذ اقترح وزير الفنون الجميلة أن أدخل من الباب الخلفى للمسرح حتى أتجنب زحام الجماهير ٠ فبدا لى اقتراح الوزير شاذا ، وقلت له انه اذا كان لدى الناس من الصبر ما يجعلهم ينتظرون من أجل مشاهدتى ، فلا أقل من أن يكون لدى من العرفان بالجميل ما يجعلنى أدخل من الباب الامامى وأريهم نفسى ٠ فاكتسى وجه الوزير تعبيرا خيل لى أنه غريب وهو يحاول اقناعى فى رفق بأن الدخول من الباب الخلفى بوفر على الكثير من المتاعب ٠ غير أننى صممت ، فلم يحاول أن يلح أكثر من ذلك

وكانت الليلة ككل ليالى الافتتاح السابحة فى الاضواء ، وعندما وصلنا فى سيارتنا المغلقة كانت جموع النـــاس محتجزة عند الطرف البعيد من الشارع ـ البعيد جدا كما بدا لى ٠ فنزلت من السيارة ثم درت حولها واتجهت ـ بكل

ما أملك من تلطف وجاذبية ـ الى منتصف الشارع ..
حيث وقفت فى ضوء المصابيح الكشافة وبسطت ذراعى للجموع على طريقة ديجول وأنا أبتسم ابتسامة عريضة ، واذا بسيل من الكرنب والطماطم ينهال على الفور بالقرب منى ! ولم أعرف ماذا كان هؤلاء الناس ، أو ما الذى حدث ، الا عندما سمعت صوت صديقى المترجم الايطالى يتأوه من ورائى قائلا :

ـ ما أسوأ ان يحدث هذا فى بلادى !

على أنه لم يصبنى شىء على أية حال، وعدت مسرعا الى المسرح • وعندئذ أشرق فى ذهنى الجانب الفكه من الموقف ، ولم أعد أستطيع ان أكف نفسى عن الضحك . بل لقد اضطر صديقى الايطالى ان يضحك معى ايضاً

وعلمت فيما بعد أن الذين هاجمونى جماعة من شباب الحركة الفاشستية الجديدة ، ومن واجبى أن أقول انه لم يكن فى قذفهم أياى أى عنف ، بل انه كان اقرب الى مجرد أعلان الرأى وقد اعتقل أربعة منهم على الفور ، وسألنى البوليس عما اذا كنت أريد ان أوجه اليهم أية تهمة ، فقلت:

ـ كلا بالطبع • فما هم الا أولاد صغار السن

وكانت أعمارهم تتراوح بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، وانتهت المسألة عند هذا الحد

قبل أن أغادر باريس الى روما ، كان لويس اراجون ـ الشاعر ورئيس تحرير مجلة الليتر فرانسيز ـ قد اتصل بى تليفونيا ، ليقول لى أن بيكاسو وجان بول سارتر يرغبان فى مقابلتى .. فدعوتهم جميعا الى العشاء ، ولما كانوا قد أقترحوا مكانا هادئا ، فقد تناولنا العشاء فى جناحى فى الفندق ، وما كاد هارى كروكر مدير دعايتى يعلم بالامر حتى كاد يفقد وعيه ، وقال :

ـ اننا سنضيع بذلك اثر اى عمل طيب قمنا به منذ غادرنا الولايات المتحدة

قلت له :

ـ ولكن هذه أوربا ياهارى ، لا الولايات المتحدة ، وهؤلاء السادة ثلاثة من اعظم الشخصيات العالمية

وكنت حريصا على الا أسر اليه أو الى اى انسان بنيتى فى عدم العودة الى أمريكا ، فقد كانت لى ماتزال أملاك هناك لم أتصرف فيها ، وجعلنى هارى أكاد أومن بأن مقابلة أراجون وبيكاسو وسارتر هى مؤامرة لقلب الديمقراطية الغربية .. ومع ذلك ، فان مخاوفه لم تمنعه من الانتظار للحصول على توقيعاتهم فى أوتوجرافه ، ولم يكن هارى مدعوا للعشاء . فقلت له اننا ننتظر وصول ستالين بعد قليل ، واننى لهذا لااريد أن يعلم أحد !

والواقع اننى لم أكن واثقا مما ستكون عليه السهرة اذ لم يكن يعرف الانجليزية غير اراجون . والحديث عن طريق المترجم اشبه بالتصويب الى هدف بعيد وانتظار الانباء عن نتائج الطلقات التى تصوبها

واراجون رجل وسيم ذو ملامح محددة . أما بيكاسو فملامحه متسائلة ومرحة ، ويمكن أن تتصوره بهلوانا أو مهرج سيرك أكثر مما تتصوره رساما ، وأما سارتر فله وجه مستدير ومع أن ملامحه لا تحتمل التأمل الا ان فيها جمالا وحساسية ظاهرة . ولم يكشف سارتر فى تلك الليلة الا عن القليل مما يجول بخاطره ، وبعد انفضاض السهرة أخذنا بيكاسو الى الشاطىء الايسر حيث المرسم الذى ما زال يشغله ، ولاحظنا ونحن نصعد السلم لافتة على باب الشقة التى تقع تحت المرسم . كتب عليها :

« ليس هذا مرسم بيكاسو ‥ اصعدوا دورا آخر من فضـــلكم » !

ووصلنا فاذا بنا فى مكان خرب اشبه بالحظيرة . حتى ليرفض شاترتون نفسه أن يموت فيه ! وكان ثمة مصباح كهربائي يتدلى من مسمار فى احد الحوامل . اســـتطعنا بفضله أن نرى سريرا حديديا مصابا « بالكساح » وموقدا مهشما . وعلى احد الجـدران كانت تستند حزمة مـن قماش اللوحات معفرة بالتراب · فمد يده والتقط واحـدة منها ، بريشة سيزان ، ومن اجمل اللوحـــات · ثم التقط واحدة اخرى ، واخرى ، وشاهدنا ما لايقل عن خمسين من الروائع ، واحسست بالرغبة فى ان اعرض عليــــه ثمنا اجماليا للمجموعة كلها .. لمجرد ان اخلصه من هذا الركام . ففى (حضيض جوركى) هذا كان يوجد منجم من الذهب ‥

وبعد حفلات الافتتاح فى باريس وروما عدنا الى لندن، حيث اقمنا عدة اسابيع ‥ كان ما يزال على ، ان ابحث عن موطن لاسرتى . فاقترح احد الاصدقاء سويسرا .وكنت أفضل بالطبع لو اننا اقمنا فى لندن ، ولكننا كنا فى شك من أن يلائم جوها الاطفال · كما اننا كنـــا بصراحة ‥ نستشعر القلق فى ذلك الوقت بشأن الارصدة المجمدة ‥

وهكذا حملنا امتعتنا ــ فى شيء من الأسى ــ وذهبنـــا مع الاطفال الاربعة الى سويسرا ، واقمنا مؤقتا فى فندق بوريفاج بلوزان ، فى مواجهة البحيرة ، وكنا فى الخريف ، والطقس أقرب الى البـــرودة ، ولكن الجبـــال كانت رائعة ‥

وقضينا اربعة أشهر نبحث عن بيت ملائم ، وكانت اونا تنتظر ميلاد طفلها الخامس ، وتلح قائلة انها لا تريد

ـ بعد مغادرة المستشفى ـ ان تعود الى فندق . فدفعتنى هذه الحاجة العاجلة الى الاسراع فى البحث ، والاستقرار أخيرا فى (مانوار دي بان) بقرية كورسييه الى الشـمال من فيفيه

ثم حصلت على هيئة من الموظفين الاكفاء : مس راشيل فورد التى أثثت البيت ثم صارت مديرة أعمال ، ومـدام بورنييه ، سكرتيرتى الانجليزية السويسرية التى أعادت كتابة هذا الكتاب عدة مرات على الآلة الكاتبة

وكنا فى البـــداية مترددين بسبب ضخامة البيت ، وشكنا في أن يكون مناسبا لدخلنا ، ولكننا عندما أخبرنا صاحب البيت بتكاليف ادارته وجدناها فى حـــدود ميزانيتنا ، وهكذا انتهى بنا المطاف الى الاقامة فى قـرية كورسييه ، التى يبلغ تعداد سكانها ١٣٥٠ شخصا

وقضينا عاما على الاقل قبل أن نتأقلم مع الجو الجديد، وقضى الاطفال بعض الوقت يدرسون فى مدرسة القريةفى كورسييه . فكانت مشكلة بالنسبه اليهم أن يتعلموا كل شيء بالفرنسية ، واستبد بنا القلق على الاثر النفسىالذى قد يتركه ذلك فيهم . على أنه لم يمض وقت طويل حتى كانوا يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وكان مما يحرك المشاعر أن نرى كيف تأقلموا جيدا مع طريقة الحياة السويسرية. حتى (كاى كاى) و (بيني) ـ المربيتان ـ فانهما شرعتا تناضلان مع اللغة الفرنسية

والآن بدأنا نحرر أنفسنا من كل ما يربطنا بالولايات المتحدة ، وقد استغرق هذا وقتـــا طويلا ، وذهبت الى القنصلية الامريكية حيث سلمتهم تصريح العودة الى البلاد قائلا اننى قد تنازلت عن حق الاقامة فى الولايات المتحدة:

ـ ألا تنوى العودة يا شارلى ؟ ..

فقلت كأننى أعتذر :

ــ كلا . اننى أكبر سنا من أن أحتمل أى مزيد من هذا العبث ..

فلم يعلق بشىء ، ولكنه قال :

ــ حسنا ، فى استطاعتك فى أى وقت أن تعود بتأشيرة عادية اذا أردت

فابتسمت وهززت رأسى نفيا وأنا أقول :

ــ لقد قررت الاقامة فى سويسرا

ثم تصافحنا ، وانتهى الامر

وقررت أونا عندئذ أن تتخلى عن جنسيتها الامريكية ، وأخطرت بذلك السفارة الامريكية أثناء وجودنا فى لندن، ولكنهم قالوا أن اتمام الاجراءات الرسمية سيستغرق على الاقل ثلاثة أيام .. فقلت لأونا :

ــ ما هذا الكلام الفارغ . ان من السخف أن يستغرق الامر كل هذا الوقت ، دعينى أذهب معك

وما كدنا نصل الى السفارة حتى عادت كافة اساءات الماضى واهاناته تتفتح فى داخلى كأننى بالون على وشك الانفجار ، وطلبت مكتب الهجرة بصوت عال ، وبدأ الارتباك واضحا على أونا . ثم فتح باب أحد المكاتب ، وظهر منه رجل يقول :

ــ هالو شارلى . أتسمح بالدخول مع زوجتك ؟

ولابد أنه كان يقرأ أفكارى . فان أول كلمة قالها كانت :

ــ ان المواطن الامريكى الذى يتخلى عن جنسيته يجب أن يكون على علم بما هو مقدم عليه ، وأن يكون فى كامل وعيه ، وهذا هو السبب فى ضرورة اجراء هذا الاستجواب . انه من أجل حماية المواطن ..

فبدا لى هذا بالطبع أمرا معقولا
وكان الرجل فى أواخر العقد السادس من عمره ،وقال لى بنظرة تأنيب :
ـ لقـــــد رأيتك فى وقفة فى عام ١٩١١ فى مسرح الامبراطورة القديم ..
فلانت عواطفى بالطبع ، وتحدثنا معا عن الايام الجميلة التى مضت
وعندما انتهت الاجراءات الشاقة ، وتم التوقيع علىآخر ورقة ، وتبادلنا كلمات الوداع الباســمة . كنت أشعر بشىء من الأسف لبرود مشاعرى تجاه المسأله كلها

***

أثناء احدى زياراتنا الى لندن ، تلقينا رسالة تقولأنه يسر خروشوف وبولجانين أن يلتقيا بنا فى حفلاستقبال تقيمه السفارة السوفييتية فى فندق كلاريدج
وعنـــدما وصلنا كانت ردهة الفندق مكتظة بزحام صاخب منفعل . وشرعنا ـ بمساعدة عضو من الســفارة الروسية ـ نشق طريقنا خلال هذا الزحام . واذا بنـا فجأة نرى خروشوف وبولجانين قادمين من الاتجاهالمقابل وكانا يحاولان مثلنا شق طريق لهما ، ولكن تعبيروجهيهما كان يدل على أنهما يئسا ، وبدآ يتراجعان فى ضيق
وكان واضحا أنخروشوف ـ حتى فى ساعات ضيقه ـ لا يفتقر الى روح الفكاهة . فبينما هو يناضل من أجـــل الخروج ناداه مرافقنا قائلا : خروشوف ! ولكنه أعرض عنه مشيحا بيده ، اذ كان الكيل قد طفح به . وعاد رجلنا يصيح :
ـ خروشوف .. هذا شارلى شابلن ..
واذا ببولجانين وخروشوف يتوقفان ، ويســتديران

نحونا وقد أشرق وجهاهمـــا ، والحـــق أن ذلك أرضى غرورى • وتم التعارف بيننا بين شد الزحام وجـذبه • ثم قال خروشوف ـ عن طريق المترجم ـ شيئا عن مدى تقدير الشعب الروسى لافلامى • وبعد ذلك قدمت الينـا الفودكا التى خيل لى أن علبة من الفلفـل الاســـود قد انسكبت فيها ، وان كانت أونا قد اعجبت بها

ودبرنا أمرنا بحيث نصنع حلقة صغيرة حتى يمكنناأن نلتقط صورة معا ، ولم أستطع بسبب الزحام أن أقول أى شىء ، فقال خروشوف :

ـ هيا نذهب الى الغرفة المجاورة

ولكن الجموع أدركت نوايانا ، وبدأ القتال على الفور • ولم نستطع الا بمساعدة أربعة رجال أن نختلى بأنفســنا فى غرفة خاصة • وما كدنا نجد أنفسنا وحدنا حتىصاح خروشوف ، كما صحنا جميعا :

ـ أف !

ووجدت حينئذ الفرصة كى أستجمع ذهنى وأتكلم • وكان خروشوف قد ألقى لتوه خطابا وديا رائعـــا لدى وصوله الى لندن ، وجاء هذا الخطاب كشـــعاع بازغ من من الشمس •• فقلت له ذلك ، مشيرا الى انه قد احيا الامل فى السلام لدى الملايين فى كافة انحاء العالم

وقاطعنا عندئذ احد رجال الصحافة الامريكيين قائلا :

ـ بلغنى يا مستر خروشوف ان ابنك كان فى المدينة ليلة أمس يستمتع بوقته

فارتسمت على وجه خروشوف ابتسامة تمتزج فيهـا الفكاهة بالحرج ، وقال :

ـ ان ابنى شاب جاد ، يجهد نفسه فى الدراسة من

اجل أن يصبح مهندسا .. ولكنه يمتع نفسه أحيانا ..
وبعد لحظات اخرى جاء رسول يقول ان المستر هارولد ستاسن موجود بالخارج ، ويسره ان يرى المستر خروشوف ، فاستدار نحوى وقال مازحا :
– ايضيرك هذا ؟ انه امريكى
فضحكت وقلت :
– لا يضيرنى على الاطلاق

***

وما كدت اعود الى سويسرا حتى تلقيت خطابا من نهرو ، مصحوبا برسالة تعريف من ليدى مونتباتن ، تقول فيها انها واثقة من ان بينى وبين نهرو اشياء كثيرة مشتركة .. وانه سوف يمر بكورسيير ، وقد نتمكن من ان نلتقى ..
ولما كان هو فى لوسرن يعقد اجتماعه السنوى بالسفراء، فقد كتب يقول انه سيسر كثيرا لو جئت وقضيت الليلة هناك .. وانه سوف يوصلنى فى اليوم التالى الى (مانوار دى بان)
وهكذا ذهبت الى لوسرن . ودهشت عندما وجدته رجلا ضئيل الجسم مثلى . وكانت ابنته – مسز غاندى – موجودة ايضا . وهى سيدة هادئة شديدة الجاذبية . وقد ترك نهرو فى نفسى انطباعا بأنه رجل متقلب المزاج عنيد ، حساس ، يتمتع بذهن مفرط فى التوقد والاتزان . وكان سلوكه فى البداية متحفظا ، الى ان غادرنا لوسرن معا وركبنا الى (مانوار دى بان) حيث دعوته الى الغداء ، بينما ابنته تتبعنا فى سيارة اخرى متجهة الى جنيف . وكان يتكلم بتقدير كبير عن لورد مونتباتن الذى ادى عملا عظيما – وهو مندوب سام فى الهند – من اجل تصفية

المصالح البريطانية هناك

وسألته فى اى اتجاه ايديولوجى تسير الهند فقال :

ـ مهما كان الاتجاه فهو فى مصلحة الشعب الهندى

واضاف انهم قد وضعوا بالفعل خطة سنوات خمس .
وظل يتحدث طوال الرحلة حديثا رائعا ، بينما سـائقه منطلق بسرعة سبعين ميلا أو اكثر ، ينهب الارض فى طرق متعرجة ضيقة ، وتواجهه منحنيات مفاجئـة حادة .
ونهرو خلال ذلك مستغرق فى شرح السياسة الهندية ، اما انا فأعترف اننى لم اسـمع نصف ما قال ، بسبب انهماكى فى متابعة القيادة من المقعد الخلفى . حتى عندما زأرت الفرامل ودفعت بنـا الى الامام ، ظل نهـرو مستمرا فى حديثه دون ادنى انزعاج ، على اننا لحسن الحظ كنا قد بلغنا اخيرا تقاطع طريقين سنتوقف عندهما لتتركنا ابنته . وعندئذ فقط تحول الى والد محب رقيق، واحتضن ابنته قائلا بحنان :

ـ خذى بالك من نفسك

.. كلمات كان الانسب ان توجهها الابنة الى الاب

***

اثناء الازمة الكورية والعالم يحبس انفاسه على حافة هذه الهوة الخطرة .. اتصلت بى السفارة الصينية تليفونيا لتسأل عما اذا كنت اسمح بعرض (اضواء المدينة) فى جنيف امام (شواين لاى) .. الذى كان المحور الذى يدور حوله تقرير مصير الحرب أو السلام

وفى اليوم التالى دعانا رئيس الوزراء الى العشـاء معه فى جنيف . وقبل ان نبدأ الرحلة اتصل بنا سكرتيره ليقول ان فخامته قد يتأخر ، لان مسألة هامة قد اثيرت فجأة فى المؤتمر (وكان ذلك تهوينا من شأن الحقيقة) ..

واننا لا يجب ان ننتظره ، فهو سينضم الينا فيما بعد

فلما وصلنا ، فوجئنا بشواين لاى ـ لدهشتنا ـ ينتظر على سلم مقره لتحيتنا . وكنت كباقى الناس متلهفا ان اعرف ماذا حدث فى المؤتمر ، فسألته . فربت على كتفى وقال :

ـ لقد سوى كل شيء بروح ودية منذ خمس دقائق

وكنت قد سمعت كثيرا من القصص الممتعة التى تروى كيف طورد الشيوعيون الى المناطق الداخلية من الصين فى الثلاثينات ، وكيف ان عددا قليلا مبعثرا اعاد تنظيم نفسه بقيادة ماوتسى تونج ، ثم عاود الزحف الى بكين وقوته العسكرية تتضاعف اثناء الطريق . وكسب هذا الزحف لهم تأييد ستمائة مليون من الشعب الصينى

وفى تلك الليلة روى لنا شواين لاى قصة مؤثرة عن دخول ماوتسى تونج الظافر الى بكين . كان هناك مليون صينى فى استقباله . وكانت منصة يبلغ ارتفاعها خمسة عشر قدما قد اقيمت له فى آخر الميدان . فلما صعد السلم من خلفها ، وظهرت قمة راسه من ورائها ، اندلعت صيحات الترحيب من مليون حنجرة ، وظلت تتزايد وتتزايد بينما الهيكل المنفرد يظهر للعيان . وعندما رفع وجه ماوتسى تونج ، غازى الصين ، على الجموع الغفيرة وقف لحظة .. ثم فجأة غطى وجهه بيديه وبكى ..

وكان شواين لاى قد شاركه مصاعب والام ذلك الزحف الشهير عبر الصين . ومع ذلك فاننى عندما تأملت وجهه الوسيم المتفجر بالحيوية اذهلنى ان ارى كم يبدو هادئا وشابا

وذكرت له ان اخر مرة كنت فيها فى شنغهاى كانت فى عام ١٩٣٦ . فقال بعد تفكير :

ـ أوه ، نعم ٠٠ كان ذلك قبل ان نبدأ الزحف ٠٠
فقلت مازحا :

ـ حسنا ٠٠ لم يعد عليك الان ان تقطع مسافات طويلة

وشربنا على العشاء الشامبانيا الصينية (وهى لاباس بها) . واقترحنا انخابا كثيرة على طريقـــة الروس . واقترحت انا نخب مستقبل الصين ، قائلا اننى وان لم اكن شيوعيا فانى من صميم قلبى اشاركهم الامل والرغبة فى حياة افضل للشعب الصينى .. ولكل الشعوب ..

سألنى الاصدقاء كثيرا هل احن الى الولايات المتحدة ـ الى نيويورك ؟ والجواب بصراحة : لا ٠ فأمريكا قـــد تغيرت ، وكذلك تغيرت نيويورك ، والضخامة الهائلـــة للمؤسسات الصناعية ، والصحافة،والتليفزيون والاعلانات التجارية .. قد فصمت تماما ما بينى وبين طريقة الحياة الامريكية . فأنا اريد الوجه الاخر من العملة . اريد مزاج حياة ابسط .. لا تلك الشوارع الصاخبة والمبـــانى المحلقة كالابراج ، تذكر على الدوام بالمصالح المالية الكبرى وانجازاتها الهائلة

وقد قضيت أكثر من عام قبل ان اصـــفى نهائيا كل مصالحى فى الولايات المتحدة . وكانوا يريدون ان يفرضوا ضريبة على دخلى من « اضواء المسرح » حتى عام ١٩٥٥ بدعوى اننى ما ازال مواطنا امريكيا ، مع انهم حـــرموا عودتى الى البلاد منذ عام ١٩٥٢ . على ننى لم اكن املك ـ كما قال محامى الامريكى ـ وسيلة للاحتـــكام الى القضاء . اذ لم تكن لدى فرصة العودة الى البلاد للدفاع عن قضيتى

ولما كنت قد صفيت كافة شركاتى الامريكية ، وأنهيت كل مصلحة لى فى أمريكا ، فقد كنت فى وضع املك معه

ان اقول لهم : اضربوا رؤوسكم بالحائط . ولكننى لم أكن أريد أن ألزم نفسى بطلب حماية أية دولة ، ولهذا وصلت الى تسوية معهم على صفقة أقل كثيرا ممـا كانوا يدعون واكبر كثيرا مما كان ينبغى أن أدفع

وكان جميع الذين يعملون عندى فى كاليفورنيا يتقاضون مرتباتهم الى ذلك الوقت . ولكننى ما كنت استطيع ان اواصل دفع هذه المرتبات وانا الان مقيم فى سويسرا . وعلى هذا فقد رتبت امر دفع مكافآت خدمتهم ، وصرفت لكل منهم منحة اضافية . وكلفنى ذلك ما مجموعه ثمانون الف دولار • أما أونا بورقيانس ، فبالاضافة الى منحتها، ظلت تتقاضى مرتبها الى يوم وفاتها

فلأختم الان اذن هذه الملحمة الخاصة بى

وانى لادرك ان الايام والظروف قد جاملتنى . واننى تغلغلت فى عواطف العالم ، وجربت حبه وكراهيته . نعم ، ولكنه منحنى الكثير من الحب ، والقليل من الكراهية

ومهما كانت قراراتى ، فاننى اومن بأن الحظ وسـوء الحظ يهبطان على الانسان اعتباطا كالسحب . ولاننى اعلم ذلك ، فاننى لا اصدم ابدا بما يصيبنى من سـوء واستقبل ما يصيبنى من خير كمفاجأة ارحب بها ، وليست لى خطة معينة اعيش بها ، او فلسفة ••فنحن جميعا، عقلاء وحمقى ، مرغمون على صراع الحيـاة . وموقفى تجاه المصاعب لا يثبت على حال ، ففى بعض الأحيان تثيرنى اشياء تافهة ، وفى بعض الاحيـان اواجه الكوارث بغير اكتراث ••

على أن حياتى الآن اكثر اثارة مما كانت فى أي وقت مضى • فأنا فى صحة طيبة ، وما زلت قادرا على الخلق ، ولدى مشاريع لانتاج مزيد من الافلام . قد لا اظهر فيها،

ولكن اكتبهاواخرجها لافراد اسرتى ،وبعضهم يملكمواهب مسرحية لا بأس بها

ثم اننى ما ازال بالغ الطموح . ولن اعتزل على الاطلاق. فهناك اعمال كثيرة احب ان اقوم بها . وبالاضافة الى ما عندى من سيناريوهات سينمائية تحتاج ان تستكمل ، فاننى أود لو أكتب مسرحية ، واوبرا ، اذا سمح الوقت

ولقد قال شوبنهاور ان السعادة حالة سلبية ..ولكننى لا اوافقه . فانا قد عرفت طوال الاعوام العشرين الماضية ماذا تعنى السعادة . ومن حظى اننى متزوج من زوجة رائعة . وكان بودى لو كتبت المزيد عن ذلك ، لولا انه امر يتعلق بالحب .. والحب الكامل هو اجمل النعم لانه فوق ما يستطيع الانسان أن يعبر عنه . وان جمال شخصية أونا ، وعمقها ، لمصدر الهام دائم لى وانا اعيشمعها..حتى حين تسبقنى ونحن نجتاز طــرقات « فيفى » الضيقة ، وتمشى امامى بكبرياء وبساطة ،وقدانتصب هيكلها الضئيل فى اعتدال ، وانساب شعرها الاسود الى الوراء كاشفا عن خطوط قليلة بيضاء ، فان موجة مفــاجئة من الحب والاعجاب بكل ما صنعته فى حياتى تستحوذ على ، واشعر بغصة تصعد الى حلقى

وفى قلب هذه السعادة اجلس أحيانا فى شرفتنــا عند الغروب ، وأنظر عبر الفناء الاخضر الرحب الى البحيرة البعيدة ، والى ما وراءها من جبال راسخة .. ثم أمضى افكر فى لا شىء ، واستمتع بما تشيعه من صفاء رائع

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٢٩٣

البحــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلتــــرا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

هذا الكتاب

فى هذا الجزء الثانى ـ والاخير ـ من مذكرات شارلى شابلن ، يبدو الفنان الكبير وكأنه يروى قصة أخرى جديدة .. مستقلة عن القصة التى رواها فى الجزء الاول ..

فقصة الجزء الاول هى قصة الغلام الضائع فى قاع لندن .. تتقاذفه الاحداث مابين شوارعها الخلفية ، وملاجئها ، وحلقاتها ، وهو فى صراع دائم مع الجوع ، وخوف دائم منه .. ثم القدرة الخ ينفذ من خلال ذلك كله ، ويتحرك الى فنان لامع

اما الجزء الثانى ، فقصته هى قصة فن السينما منذ الحاضر حتى الان . ودور البطولة فى هذه القصة لايلعبه ش مالعبه شركات السينما ، ودولاراتها ، واصحاب ملايينها ، ا اقدارها ..

وهى من هذه الزاوية ليست قصة ممتعة فقط ، وانما هى من الضوء يجلو كثيرا من غوامض وعلاقات المجتمع الامريكى المتباينة التى تحكمه ـ منعكسة على مسرح هوليوود

وليس هناك من هو أقدر من شارلى على تسجيل مثل هذه عاصرها منذ البداية ، وكان ألمع أبطالها .. الى أن اخ يهجرها ! ..